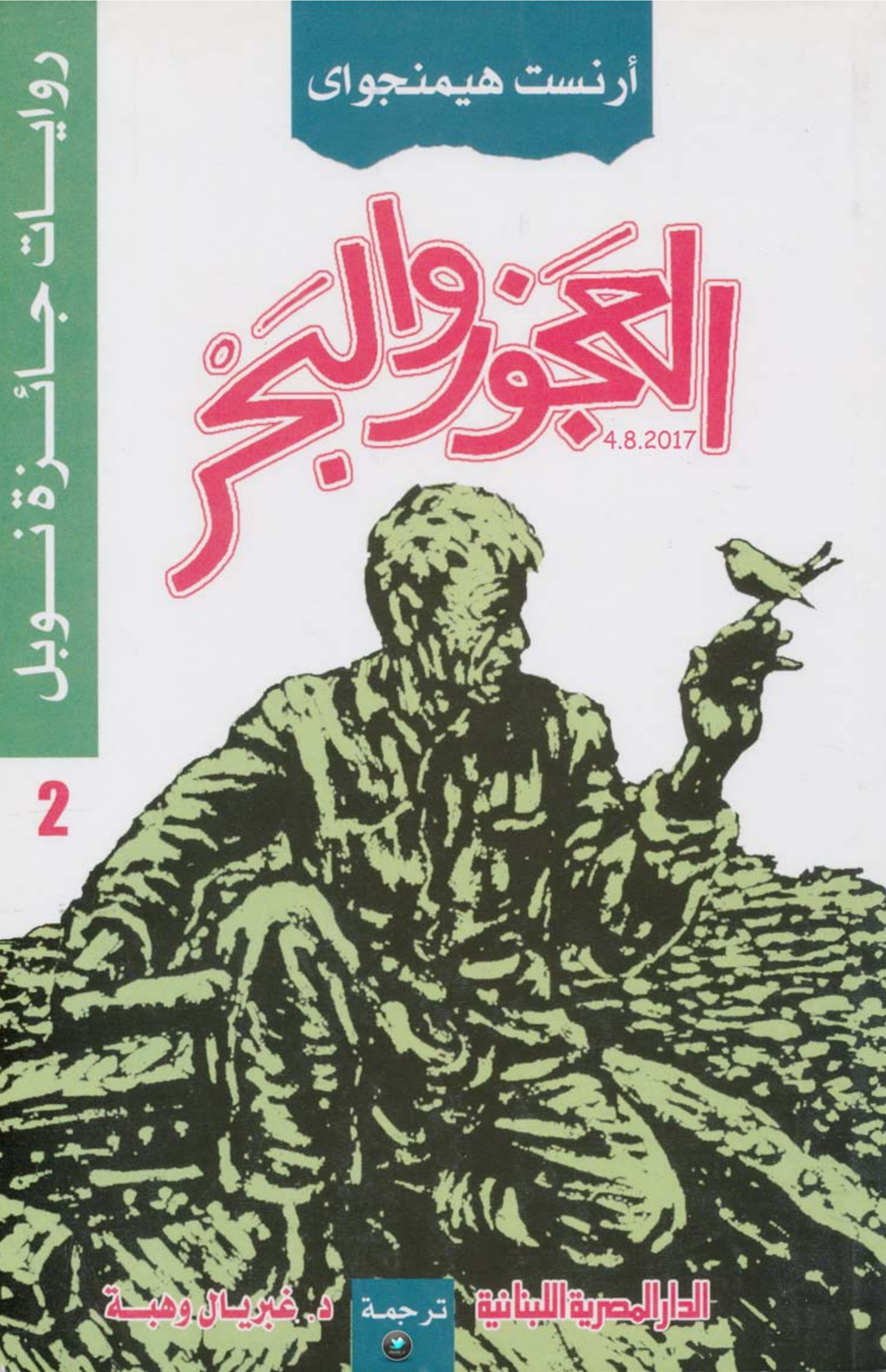

أرنست هيمنجواى
العجوز والبحر
4.8.2017
روايات جائزة نوبل
2
الدار المصرية اللبنانية
ترجمة
د. غبريال وهبة



THE OLD MAN AND THE SEE

آرنست هيمنجواي

نوبل / 1952

ترجمة دكتور غبريال وهبه

روايات جائزة نوبل

2

روايـات جائـزة نوبـل
سلسلة تصدرها



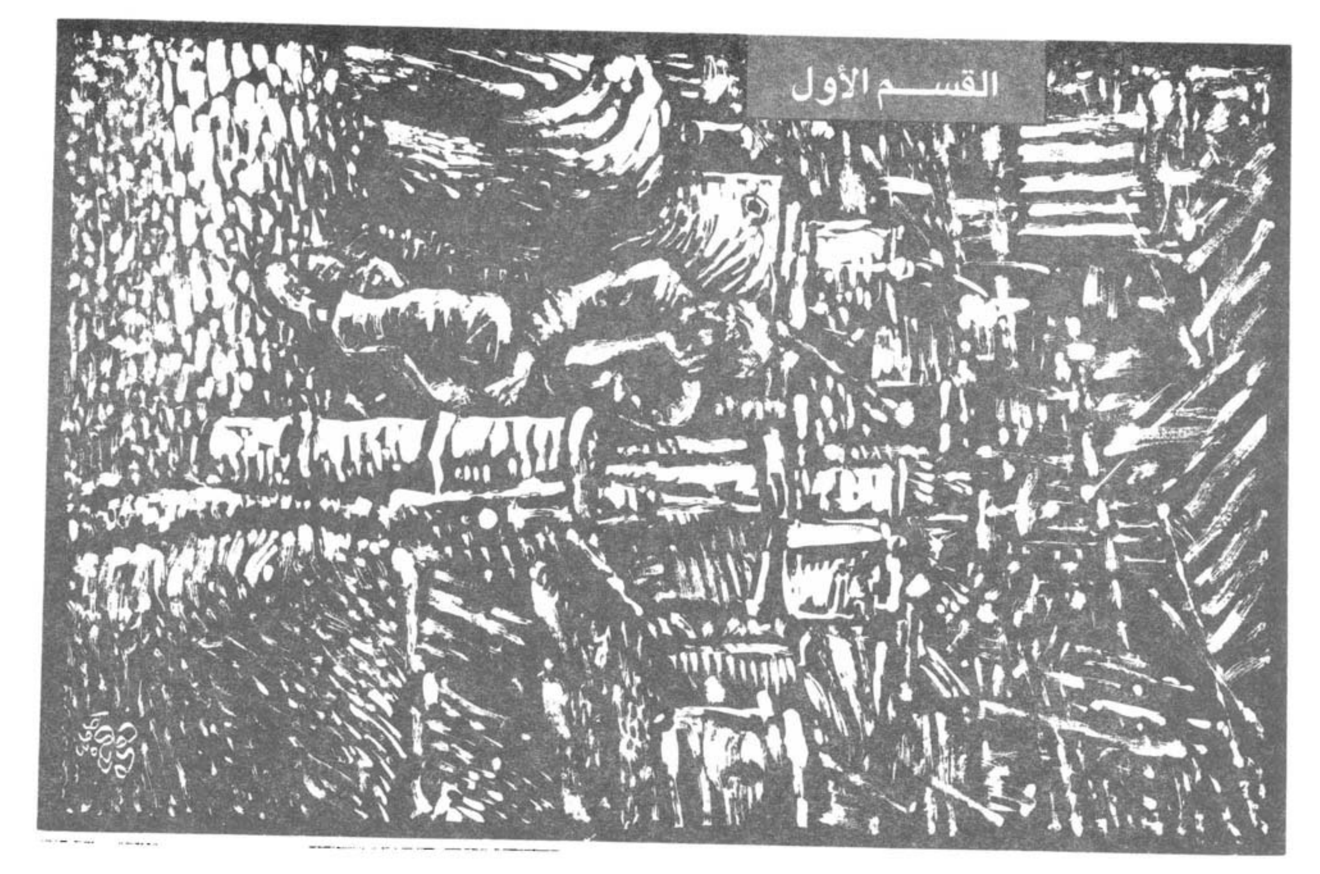
الدار المصرية اللبنانية
المدير العام : محمد رشاد
رئيس التحرير : فتحي العشري
الإعداد والصياغة : محمد فتحي

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + – ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 1994 / 2744
الترقيم الدولى : 8 - 130 - 270 - 977

الطبعة الرابعة : رمضان 1428هـ – أكتوبر 2007م
الطبعة الخامسة : صفر 1430هـ – فبراير 2009م

القسم الأول



كــان رجلاً أضنته الشيخوخة يعمل بالصيد وحده فى مركب شراعى صغير فى مجرى الخليج . لم يظفر حتى الآن بأية سمكة منذ أربعة وثمانين يوماً مضت .

وفى الأيام الأربعين الأولى كان برفقته صبى ، بيد أنه بعد مرور أربعين يوماً بلا صيد انبرى والدا الصبى يقولان له : إن الرجل العجوز لا شك قد أصابه النحس ، وهذا أسوأ ما يُبتلَى به إنسان من حظٍّ سيِّىء . انصاع الصبى لأوامرهما ، فذهب ليعمل فى مركب آخر ، وفازَ من أول أسبوع بثلاث سمكات من الأنواع الضخمة .

مسَّت كبد الصبى لوعة حزن وهو يرى العجوز يجىء كل يوم بمركبه خاوياً ، وكان دائم الذهاب إليه ليعاونه فى حمل لفات الحبال والأسلاك أو خطاف رفع الأسماك والرمح المستخدم فى طعنها ، أو الشراع الملتف حول صارى المركب . . كان الشراع المرقع بقطع قماش من أكياس الدقيق يبدو وهو ملفوف كأنه عَلَم للهزيمة والإحباط ، والخيبة المستمرة الدائمة .

كان الرجل العجوز نحيلاً تنتشر التجاعيد العميقة فى أنحاء وجهه . وقد ظهرت على وجنتيه بثور سمراء من سرطان الجلد الحميد الناشىء من انعكاس أشعة الشمس على مياه البحر فى هذه المنطقة الاستوائية . . امتدت

البثور على جانبى وجهه بشكل واضح ، وبدت على يديه ندوبٌ عميقة من جراء تعامله مع الأسماك الثقيلة ، وتقييدها بالحبال . . لم يكن هناك نَدَبٌ[1] واحد حديث ، إذ كانت الندوب جميعها قديمة مثل التآكل الذى تحدثه عوامل التعرية فى صحراء جدباء لا تعرف الأسماك .

كل شىء فيه يتصف بالقدم ، ما عدا عينيه اللتين كانتا بنفس لون البحر، ويطل منهما المرح وعدم اليأس .

وبينما كانا يتسلقان الضفة المنحدرة ، حيث سحبا المركب وألقيا مراسيه هناك ، قال له الصبى :

ـ سانتياجو . . يمكننى أن أرافقك ، وأعمل معك مرة أخرى . لقد حصلت على بعض النقود .

كان العجوز قد عَلَّم الصبىَّ كيف يصطاد الأسماك ، وقد تعلَّق الغلامُ به وأحبه .

فقال له العجوز :

ـ كـلاَّ .

واستطرد قائلاً :

ـ أنت تعمل فى مركبٍ ابتسم الحظُّ لأصحابه . امكث معهم .

ـ لكـن تذكر كيف ظللـت فيـما مضى سبعـة وثمانين يوماً بـدون أن يجود علينا البحر بشىء ، ثم اصطدنا أسماكاً ضخمة كل يوم طوال ثلاثة أسابيع؟

---

(١) النَدَبُ : أثَـرُ الجُـرْح .

قال العجوز :

ـ نعم أذكر ذلك .

ثم أضاف :

ـ أعرف أنك لم تتركنى بسبب ارتيابك فى عمل غير مؤكد ، وبدون نتائج مضمونة .

ـ إنَّ أبى هو الذى جعلنى أتخلى عنك ، وأنا صبىٌّ يجب علىّ أن أطيعه .

فقال العجوز :

ـ أعرف . . هذا شىء طبيعىٌّ تماماً .

ـ إنه ليس على قدر كبير من الإخلاص والوفاء بالعهد .

قال العجوز :

ـ كلا . . ولكننا نتحلى بالإخلاص والوفاء ، أليس كذلك ؟

فقال الصبى :

ـ نعـــم .

وواصل حديثه :

ـ أيمكننى أن أُقدم لك قدحاً من الجعَّة فى الشرفة (كانت محلاًّ وحانة على قطعة من الأرض شبه مستوية فى محاذاة البحر) ثم نأخذ المعدات إلى البيت .

فقال العجوز :

ـ ولِمَ لا ؟ إننا صيادون من أبناء مهنة واحدة .

جلسا فى الشرفة ، وراح كثير من الصيادين يهـزَءُون من العجوز ، ولم يُثِـرْ ذلك غضبه . نظر إليه قُدامَى الصيادين فى أسـًى وحُزن . بيد أنهم لم يُظهروا ذلك ، وتحدثوا بأدب عن التيار المائى الذى يجرف شباكهم وحبالهم فى الأعماق ، وعن الطقس الجيد ، وعمَّا شاهدوه فى حياتهم مع البحر.

كان الصيادون الذين ظفروا بصيد طيب فى ذلك اليوم على أهبة الاستعداد بعد أن أعملوا سكاكينهم فى أسماك « المَرْلين » الضخمة لإعدادها للبيع ، ونقلوها مُمَـدَّدةً بطُولها على ألواح من الخشب ، حيث حَمَلها الرجال وساروا بها وهم يترنحون ذات اليمين وذات اليسار إلى بيت الأسماك فى انتظار الشاحنة المثلجة الكبيرة لتحملها إلى السوق فى « هافانا » .

أما أولئك الذين اصطادوا أسماك القرش ، فقد مضوا بها إلى مصنع «القرش» فى الناحية الأخرى من الخليج الصغير ، حيث يرفعونها بمجموعة من الحبال والبكرات لتوضع فوق كتلة خشبية ، وتُنزع أكبادها ، وتُفصل زعانفها ، وتُسلخ جلودها ، وتُقطع لحومها إلى شرائح للتمليح .

وحين تهب الريح من الشرق فإنها تحمل معها عبر الميناء تلك الرائحة المنبعثة من مصنع « القرش » .

ولم يكن هناك فى ذلك اليوم سوى رائحة ضعيفة ، حيث غيرْت الريح اتجاهها مبتعدة صوب الشمال ، ثم تضاءلت تدريجيًّا ، فكان الجو منعشاً لطيفاً ومشرقاً فى الشرفة .

نادى الصبى العجوز :

ـ سانتياجو .

كان العجوز ممسكاً بقدحه وهو يحتسى « الجَعَّة » سابحاً بخياله عبر سنوات عمره العديدة التى مضت ، فقال :

ـ نعـم .

ـ أو يمكننى أن أذهب لأُحضر لك بعض السردين من أجل الغد ؟

ـ كلا . . اذهب والعب « البيسبول » . . أنا ما زلتُ قادراً على التجذيف ، وسيلقى روجيليو بالشباك .

ـ وددتُ أن أذهب لأجيئك بالسردين ، و إذا كان لا يمكننى أن أصطاد معك فلا أَقَلَّ من أن أخدمك بطريقة ما .

فقال العجوز :

ـ لقد اشتريت لى قدحاً من « البيرة » .

وأضاف قائلاً :

ـ لقد أصبحت الآن رجلاً .

استفسر الصبى قائلاً :

ـ كم كان سنى حين أخذتنى فى الزورق لأول مرة ؟

ـ خمسة أعوام ، وكدْتَ تلاقى مصرعك عندما ظفرت بسمكة ضخمة مفعمة بالحياة والقوة ، وأوشكت أن تحطم الزورق إلى شظايا . . أَوَ يمكنك أن تتذكر ؟

ـ ما زلت أذكر أن ذيلها راح يضرب بعنف ، مُـوَجِّهاً صفعاته ولطماته بقوة ، ومحدثاً ضجة داوية ، والمقاومة العنيدة تتخاذل تحت وطأة ضربات

هراوتك . وأذكرك حين ألقيت بى إلى مقدمة المركب حيث كانت لفات الحبال المبتلة قابعة هناك ، وشعرت بالمركب بأجمعه يهتز ويرتجف ، وسمعت الضجيج عالياً وأنت تضرب السمكة بهراوتك كأنما توجه ضربات عنيفة متكررة بالفأس نحو شجرة لقطعها ، وكانت رائحة الدم تملأ المكان حولى .

ـ أ تتذكر ذلك حقًّا ، أم تراه مجرد ما رويته لك ؟

ـ بل أتذكر كل شىء منذ أول مرة خرجنا فيها معاً .

تطلع إليه العجوز بعينيه اللتين سَفَعَتْهُمَا الشمس [1] وتطل منهما الجرأة والثقة بالنفس والحنان ، وقال :

ـ لو أنك كنت ابنى لصحبتك لنغامر معاً :

ثم استطرد :

ـ ولكنك تنتمى لأبيك وأمك ، وتعمل فى مركبٍ جالبٍ للحظ الحسن .

ـ هل أجيئك بالسردين ؟ إننى أعرف من أين آتيك بأربعة من طُعْم الأسماك أيضاً ، .

ـ لدى ما تبقى منه اليوم . لقد وضعته فى الملح داخل الصندوق .

ـ دعنى أزودك بأربع قطع من الطُّعم الطازج .

قال العجوز :

ـ بل قطعة واحدة .

---

(١) سفعتهما الشمس : لفحتهما لَفْحاً يسيراً .

لم يفقد الرجل الأمل والثقة قَـط ، بل لقد أنعشهما هبوب النسيم العليل.

انبرى الصبى قائلاً :

ـ أُحْضِـرُ اثنتين .

وافق الرجل العجوز .

ـ أَوَ لن تسرقهما ؟

فقال الصبى :

ـ لا تثريب علىَّ إذا سرقتهما من أجلك ، ولكننى اشتريتهما .

قال العجوز :

ـ أشكرك .

كان الرجل من البساطة والتواضع حتى لم يثر ذلك دهشته ، ولم يكن الأمر مخزياً بالنسبة له ، ولم يجد فيه مساساً بكبريائه .

ثم قال :

ـ هذا التيار يبشر بغد طيب .

فسأله الصبى :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

ـ سأذهب بعيداً لأعود مع الرياح حين تغير اتجاهها . أريد أن أغادر البحر قبل أن يمد الفجر لسانه الدقيق .

عندئذ قال الغلام :

ـ سأحاول أن أجعل الذى أعمل معه يذهب بعيداً .

ثم أكمل حديثه قائلاً :

ـ حتى إذا أمسكتَ بصيد ضخم يمكننا أن نهرع إليك لمعاونتك .

ـ ولكن صاحبك لا يحب أن يتوغل بعيداً فى البحر .

فقال الصبى :

ـ أجـل .

ثم أردف :

ـ ولكننى سأرى شيئاً لا يستطيع أن يراه مثل طائر بحرى يتعقب فريسته فى البحر ، وهكذا أحمله على الخروج بعيداً سعياً وراء « دولفين » .

ـ هل عيناه من الضعف إلى هذا الحد ؟

ـ نعم ، بل يكاد يكون أعمى .

فقال العجوز :

ـ هذا غريب .

ثم أضاف :

ـ إنه يسير أبداً بِتَـؤَدَة كالسلحفاة ، وهذا هو الذى يطفىء نور العينين .

ـ ولكنك طالما رحَلْتَ كالسلحفاة عبر شاطىء « البعوض » لسنوات عدة ، ولم تزل عيناك سليمتين .

ـ إننى عجوز عجيب .

ـ ولكنْ ، أما زِلْتَ قويًّـا حتى الآن كى تصطاد سمكة ضخمة ؟

ـ أعتقد ذلك ، وهناك حيل عديدة .

ـ قال الصبى :

ـ دعنا نأخذ المعدات إلى البيت .

ثم قـال :

ـ وهكذا يمكننى أن آخذ الشبكة الصغيرة لأطرحها ابتغاء صيد السردين .

لقد التقطا المعدات من المركب .

حمل العجوز الصارى فوق كتفه ، وحمل الصبى الصندوق الخشبى وبه الحبال الملتفة المجدولة ذات اللون البنى ، والخطاف والرمح وقصبته . أمَّـا الصندوق المحتوى على الطُّعْم فقد كان عند مؤخرة المركب ، ووضعت إلى جانبه الهراوة التى كانت تستخدم لإخضاع الأسماك الكبيرة وقهرها .

ومع أن أحداً لن يسرق من الرجل العجوز شيئاً ، فإنه كان من الأفضل نقل الشراع والحبال الثقيلة إلى البيت ؛ لأن النَّدى يُنزل أضراراً بهما .

أما الخطاف والرمح فقد كانا لا يغريان أحداً بالاستحواذ عليهما إذا ما تركهما فى المركب ، غير أنه آثر نقلهما إلى البيت برغم أنه كان واثقاً تماماً من أن السكان المحليين لن تمتد أيديهم إليه لتسرقه .

سارا فى الطريق معاً ، وصعدا إلى الكوخ الذى يقيم فيه الرجل العجوز ، ودَلَفَا من بابه المفتوح .

أنزل العجوز الصارى الذى يلتف حوله الشراع ، وأسنده إلى الجدار ، ووضع الصبى الصندوق والمعدات الأخرى بجانب الصارى الذى كان يضارع فى امتداده طول الحجرة الوحيدة التى يتكون منها الكوخ .

كان الكوخ مصنوعاً من جذوع أشجار النخيل الملكى الصلبة الضارب لونها إلى البياض ، ويوجد بالداخل سرير ، ومائدة ، ومقعد واحد ، ومساحة صغيرة من الأرض المكسوة بالتراب يطهو العجوز فوقها طعامه على الفحم النباتى . أما الحوائط الداخلية البنية فقد كانت مكسوة بألياف متشابكة من سعف النخيل ، وعلق فوقها صورة ملونة للقلب المقدس ، وأخرى للعذراء ، وكانتا بقايا تذكارية من زوجته التى غادرت دنيانا . وفيما مضى كانت هناك صورة لها ذات ألوان باهتة معلقة على الحائط ، غير أنه أنزلها من فوق الجدران ؛ لأنه كلما نظر إليها كانت تحمل إليه إحساساً بالوحدة والغربة الموحشة ، ووضعها على رف فى ركنٍ خلف قميصه النظيف .

سأله الصبى :

ـ ماذا عندك لتأكله ؟

ـ وعاء من الأرز الأصفر بالسمك . هل لك فى قليلٍ منه ؟

ـ كلا ، سآكل فى بيتى . هل أَوقد لك النار ؟

ـ كلا ، سأوقدها بنفسى فيما بعد ، أو ربما أتناول الأرز بارداً .

ـ هلا سمحت لى بأخذ الشبكة الصغيرة ؟

ـ بلا ريب .

لم تكن هناك شبكة صغيرة ، والصبى مازال يذكر متى باعاها ، غير أنه كان يروق لهما أن يقوما بهذه التمثيلية كل يوم متخيلين أنها مازالت موجودة . كما لم يكن هناك وعاء من الأرز الأصفر بالسمك ، وكان الصبى يعلم ذلك أيضاً ، تذكر العجوز أن الغد سيكون اليومَ الخامسَ والثمانين الذى يمضى بدون أن يظفر بصيد ، فقال للصبى :

ـ خمسة وثمانون . . رقم يجلب الحظ !

ثم أكمل حديثه قائلاً :

ـ أتُحب أن ترانى أحصل على سمكة يفوق وزنها ألف رطل ؟

قال الصبى :

ـ سآخذ الشبكة الصغيرة وأمضى طلباً للسردين . وأنت هَلاَّ جلستَ فى الشمس أمام مدخل الكوخ ؟

ـ نعم . عندى جريدة الأمس ، وسأقرأ صفحة « البيسبول » .

لم يكن الصبى يعلم ما إذا كانت جريدة الأمس حقيقة أم أنها مجرد خيال أيضاً ، ولكن العجوز أخرجها من تحت الفراش وقال مفسراً :

ـ لقد أعطانى « بيريكو » إياها فى الحانة .

فقال الصبى :

ـ سأعود عندما أحصل على السردين ، وسأحتفظ بنصيبك ونصيبى معاً

فى الثلج ، ويمكننا أن نتقاسمهما فى الصباح ، وحين أعود تستطيع أن تخبرنى بأنباء « البيسبول » .

ـ إن فريق « اليانكى » لا يمكن أن ينهزم .

ـ ولكننى أخشى عليه من هنود « كليفيلاند » .

ـ كن واثقاً يا بنى « اليانكى » فكّـرْ فى « ديمادجو » العظيم .

فقال الصبى :

ـ أخشى من نمور « ديترويت » وهنود « كليفيلاند » .

ـ كن يقظاً وإلاًّ فستخشى أيضاً من حُمر « سينسيناتى » وبيض «شيكاجو» .

ـ ادرس ذلك وأخبرنى حين تعود .

وفاجَـأَهُ العجوز بقوله :

ـ أوَتظن أن علينا أن نشترى ورقة يانصيب تنتهى برقم خمس وثمانين ؟ فغداً هو اليوم الخامس والثمانون .

قال الغلام :

ـ يمكننا أن نفعل ذلك .

ثم أضاف قائلاً :

ـ ولكن ماذا عن رقم سبع وثمانين الذى سجلت فيه رقمك القياسى فى الصيد ؟

ـ هذا لا يحدث مرتين فى حياة الإنسان . هل تعتقد أنك يمكنك العثور على ورقة يانصيب تنتهى برقم خمس وثمانين ؟

ـ أستطيع أن أطلب واحدة .

ـ الورقة الواحدة ثمنها دولاران ونصف ، فَمِمَّن نقترض ذلك المبلغ ؟

ـ هذا سهل ميسور ، يمكننى دائماً أن أقترض دولارين ونصفاً .

ـ إننى مستطيع ذلك أيضاً ، غير أننى لا أحاول أن أقترض ، ففى أول الأمر تقترض ثم لا تلبث أن تتسول .

قال الصبى :

ـ فلتلتهب حماساً . أيها العجوز .

ثم أردف قائلاً :

ـ تذكر أننا فى شهر سبتمبر .

قال العجوز :

ـ نعم . . الشهر الذى تأتى فيه الأسماك الكبيرة .

ثم انثنى يقول :

ـ أمَّا شهر مايو ففى مقدور أى إنسان أن يكون فيه صياداً .

وهنا انبرى الصبى قائلاً :

ـ إنى ذاهب الآن سعياً وراء السردين .

وحين عاد الصبى وجد العجوز يغط فى النوم وهو جالس على مقعده ، وقد انتقلت الشمس إلى الضفة الغربية من «إقيانوس» السماء .

أمسك الصبى ببطانية عتيقة من مخلفات الجيش ، وجذبها من فوق الفراش ونشرها على ظهر المقعد ، وفوق كتفى العجوز .

كانتا كتفين عجيبتين ، تتميزان بالقوة برغم أنهما عتيقتان .

كما كان عنقه قويًّـا أيضاً ، وكادت الغضون والتجاعيد تختفى حينما كان العجوز نائماً وقد تدلى رأسه إلى الأمام .

أما قميصه فقد كان مرصعاً بِرُقَعٍ كثيرة ، حتى أصبح يُماثل شراع مركبه ، وبهتت ألوان تلك الرقع إلى مختلَف درجات الألوان تحت وطأة وهج الشمس .

وبدا رأس العجوز وهو مغلق العينين كأنما قد خلا من معالم الحياة .

كانت الجريدة ترقد فوق ركبتيه وقد أبقاها فى مكانها ثقل ذراعه .

كان العجوز حافىَ القدمين حين راحت نسمات المساء تداعبه حانية فى رفق ولين .

تركه الصبى هناك ، وحينما عاد ألفاه ما زال نائماً كما تركه .

وضع الصبى يده على إحدى ركبتى العجوز وصاح به :

ـ استيقظ أيها العجوز .

فتح العجوز عينيه ، ثم عاد بعد هنيهة إلى واقعه من أحلامه البعيدة .

ارتسمت على وجهه ابتسامة ، ثم سأل الصبى :

ـ بماذا جئت ؟

أجاب الغلام :

ـ بالعشاء ، وسنتناوله معاً .

ـ لست فى منتهى الجوع .

ـ هيا . . تعالَ وكُلْ ، لا يمكنك أن تخرج إلى الصيد وأنت جَوْعان .

ـ معك حق ، وعلىَّ أن أتناول الطعام فعلاً .

استوى العجوز واقفاً على قدميه ، وأمسك بالجريدة وطواها . ثم بدأ يطوى البطانية .

فإذا بالصبى يصيح به :

ـ دع البطانية حول كتفيك .

ثم أردف قائلاً :

ـ لن تخرج للصيد أبداً دون أن تتناول طعامك طالما بقيت أنا على قيد الحياة .

فقال العجوز :

ـ إذن عِشْ طويلاً ، واعتنِ بنفسك .

ثم سأل الصَّبِىَّ :

ـ ماذا سنأكل ؟

أجابه الغلام :

ـ فُولاً وأرزاً ، وموزاً مقليًّـا ، وبعضاً من اليَخْنى .

وكان الصبى قد جاء بذلك الطعام من الشرفة فى عمود ذى وعاءين معدنيين ، وأخرج من جيبه مجموعتين من أدوات المائدة ، كل منهما مكون من سكين وشوكة وملعقة ملفوفة فى منديل من الورق .

سأله العجوز :

ـ من أعطاك هذه الأشياء ؟

أجاب الصبى :

ـ مارتين . . صاحب المحل .

ـ يجب أن أشكره .

فقال الغلام :

ـ لقد شكرته فى حينه ، ولست فى حاجة إلى أن تشكره مرة أخرى .

قال العجوز فى حماس :

ـ سأهديه لحم بطن سمكة كبيرة فى يومٍ مَّـا ، ألم يفعل ذلك معنا أكثر من مـــرة ؟

أجاب الصبى :

ـ أعتقد ذلك .

ـ يجب علىّ إذن أن أعطيه شيئاً أكثر من لحم بطن سمكة ، إنه يهتم بنا كثيراً .

ـ وأرسل لنا قدحين من البيرة .

ـ أُفضل البيرة المعبأة فى العلب .

ـ أعرف . ولكن هذه فى زجاجات وتسمي « بيرة هاتوى » ، وسأعيد إليه الزجاجتين الفارغتين .

فقال العجوز :

ـ هذا منتهى اللطف منك .

ثم أردف :

ـ أوَنتناول الطعام ؟

فتحدث إليه الصبى برقة ودماثة وكرم :

ـ سألتك هذا .

ثم أضاف قائلاً :

ـ لم أشأ أن أفتح العمود قبل أن تكون متأهباً لتناول الطعام .

فقال العجوز :

ـ إننى متأهب الآن .

وأكمل حديثه قائلاً :

ـ إننى أحتاج فقط إلى فترة لأغسل يدىَّ فيها .

فكر الصبى ثم سأل نفسه :

ـ أين مُغْتَسل[1] العجوز ؟ إن صنبور مياه القرية على بعد شارعين من هذا الطريق .

---

(١) المغتسل : الماء الذى يغتسل به .

ثم استغرق الصبى لحظة مفكراً ، ثم قال لنفسه :

ـ كان علىّ أن أحضر له الماء إلى هنا ، وقطعة صابون ، ومنشفة جيدة ، لماذا لم أفطن إلى ذلك ؟ يجب أن أبتاع له قميصاً آخر ، وسترة للشتاء ، وحذاءً من أى نوع ، وبطانية أخرى .

قال العجوز :

ـ إن اليخنى الذى أحضرته ممتاز .

فسأله الصبى :

ـ هـلاَّ حدثتنى عن « البيسبول » !

قال العجوز فى سعادة :

ـ فاز فريق « اليانكى » فى مباراة الدورى الأمريكى كما سبق أن قلت .

قال الغلام :

ـ ولكنه خسر مباراة اليوم .

ـ هذا لا يعنى شيئاً . إن « ديماجو » العظيم متأهب لاستعادة مجده .

ـ ولكنْ لديهم أبطالٌ غيره فى الفريق .

ـ طبعاً . ولكنْ هناك فرق بين « ديماجو » وغيره . وفى الدورى الآخر بين فريقى « بروكلين » و « فيلادلفيا » أحسب أن فريق « بروكلين » سيفوز ، غير أننى أفكر فى « ديك سيسلر » وأولئك الأبطال فى الملعب القديم .

ـ لم يكن يضارعهم أحد . إن « ديك سيسلر » يطلق الكرة إلى أطول مسافة شاهدتها فى حياتى .

ـ أوَتتذكر عندما كان معتاداً على التردد على الشرفة ؟ لقد وددت أن أدعوه إلى الصيد ، ولكننى كنت أجبن من أن أسأله ذلك ، ثم سألتك أن تدعوه أنت ، غير أنك جبنت أيضاً .

ـ أعرف ذلك ، كانت غلطة كبيرة . ومن أدرانا ؟ فربما ذهب معنا ، وعنّ له بعد ذلك أن يمضى معنا إلى آخر عمرنا .

فقال العجوز :

ـ وددت أن اصطحب « ديماجو » العظيم فى رحلة صيد .

ثم استطرد :

ـ يقولون إن أباه كان صياداً ، لعله كان فقيراً مثلنا فيتفهم وضعنا .

ـ أما والد « سيسلر » العظيم فلم يذله الفقر ، وكان ذلك الوالد يلعب فى مباريات الدورى حين كان فى مثل سنى .

ـ عندما كنت صغيراً ، كنت أتولى أمر شراع فى سفينة عريضة جـدًّا ذات أشرعة وصَوارٍ ، وكانت متجهة إلى إفريقيا ، وقد رأيت سباعاً على الشواطىء فى المساء .

ـ أعرف ، فقد أخبرتنى بذلك من قبل .

ـ هل تؤثر أن نتحدث عن إفريقيا أو عن « البيسبول » ؟

فقال الصبى :

ـ أعتقد أن « البيسبول » أفضل .

ثم استطرد قائلاً :

ـ حدثنى عن « جون ج . ماكجرو » العظيم .

ـ اعتاد فيما مضى أن يجىء أحياناً إلى الشرفة ، ولكنه كان جِلْفاً فظًّا . وإذا شرب الخمر كان من الصعب إرضاؤه ، أو التعامل معه . كان عقله مشغولاً بالجياد تماماً مثلما كان يهتم بالبيسبول ، فكان دائماً يحمل فى جيوبه قوائم بأسماء الجياد ، وكثيراً ما يذكر أسماءها فى أحاديثه التليفونية .

فقال الصبى :

ـ كان إداريًّا عظيماً يحسن التنظيم ، كان أبى يعتقد أنه أعظم المنظمين .

عندئذ قال العجوز :

ـ ذلك لأنه كان يجىء إلى هنا فى معظم الأوقات .

ثم استطرد قائلاً :

ـ لو أن « دوروتشر » استمر يأتى إلى هنا كل عام لاعتقد والدك أنه أعظم المنظمين .

ـ من هو أعظم المنظمين حقًّا . . لوكيه أو ميكيه جونثاليث ؟

ـ أعتقد أن كلا منهما يضارع الآخر.

ـ وأنك أفضل صياد .

ـ كلا ، أعرف آخرين أمْهَر منى .

فقال الصبى :

ـ كلا . . كيف يتأتى ذلك ؟!

ثم أردف :

ـ هناك العديد من مهرة الصيادين ، والبعض يُعَـدُّ من أعظم الصيادين ، ولكن هناك أنت فقط ، فإنك نسيج وحدك .

ـ شكراً لك ، إنك تجعلنى سعيداً ، آمل ألاَّ تخرج من البحر سمكة من الضخامة بحيث تثبت أننا مخطئون .

ـ ليس هناك مثل تلك السمكة إذا كنت لم تزل قويًّـا كما تقول .

قال العجوز معلقاً :

ـ ربما لا أكون قويًّـا كما أعتقد .

ـ ثم أكمل قائلاً :

ـ ولكننى أعرف كثيراً من الحيل ، وأتحلى بالإصرار والعزم .

ـ عليك أن تتوجه إلى مخدعك الآن لتنام حتى تصحو نشطاً فى الصباح . . سآخذ المعدات معى إلى الشرفة .

ـ طابت ليلتك إذن ، سأوقظك فى الصباح .

فقال الصبى :

ـ إنك ساعتى المنبهة .

وهنا انبرى العجوز قائلاً :

ـ الشيخوخة هى ساعتى المنبهة .

صمت هنيهة ، ثم استطرد قائلاً :

ـ لماذا يستيقظ مَنْ تقدمتْ بهم السن مبكرين ؟ ألكى يفوزوا بيوم أطول عن الآخرين ؟

فقال الصبى :

ـ لا أدرى .

ثم قال :

ـ وكل ما أعرفه أن الأولاد الصغار ينامون فى وقت متأخر ثم يروحون فى نوم متصل عميق .

هز العجوز رأسه وقال :

ـ يمكننى أن أتذكر ذلك حينما كنت صغيراً .

ثم قال :

ـ سأوقظك فى الوقت المحدد .

ـ إننى لا أحب أن يوقظنى الرجل الذى أعمل معه ، فهذا يشعرنى كما لو كنت أدنى منه .

ـ أعرف ذلك .

ـ أرجو لك نوماً طيباً أيها العجوز .

انسل الغلام خارجاً . لم يكن هناك ضوء عندما تناولا عشاءهما على المائدة .

خلع العجوز « بنطلونه » ومضى إلى مخدعه فى الظلام .. لف «البنطلون» على الجريدة وكَوَّمَهُ متخذاً منه وسادة لرأسه ، وغطى أسلاك

السرير الزنبركية بالجرائد القديمة ، ونام فوقها بعد أن لف نفسه ببطانيته .

استغرق العجوز فى النوم بعد فترة وجيزة ، وعادت به أحلامه إلى صباه ، وحملته إلى إفريقيا . . إلى شطآنها الذهبية الطويلة ، وضفافها البيضاء التى تبهر العيون ، والأراضى ذات الارتفاع الشاهق الداخلة فى البحر ، وجبالها السمراء التى تكاد تناطح السماء .

كان يعيش كل ليلة على طول ذلك الساحل ، وهو يسمع فى أحلامه هدير الأمواج ، ويرى فوقها زوارق السكان المحليين قادمة بهم ، وكان يستنشق رائحة القار ونسالة الحبال القديمة فوق سطح المركب الذى استلقى عليه ، ويتسلل إلى أنفه عبير أرض إفريقيا الذى يحمله إليه نسيم الصباح .

وعادة ما كان يصحو عندما يستنشق عبير الأرض ، ويرتدى ثيابه ، ويذهب لإيقاظ الصبى . ولكن عبير الأرض الذى حمله إليه نسيم الصباح استنشقه مبكراً فى هذه الليلة ، وعرف ذلك فى حلمه ، فاستمر يحلم ليرى القمم البيضاء لجبال الجزر البارزة من البحر ، ثم رأى فى حلمه شتى موانىء ومرافىء الكانارى ومراسيها البحرية .

لم يعد العجوز يحلم بالعواصف ، ولا بالأحداث الكبيرة ، ولا بالأسماك الضخمة ، ولا بالمعارك ، ولا بمباريات القوة ، ولا بزوجته .

إنه الآن يحلم فقط بالأماكن والسباع التى كانت تلهو هناك على الشاطىء كما تلهو صغار القطط فى الغسق ، كان يحب تلك الأسود مثلما يُحب الصبىَّ الذى لم يكن يحلم به قط .

استيقظ من نومه بسهولة ، وتطلع من الباب المفتوح إلى القمر ، وفرد بنطلونه وارتداه .

بَالَ العجوزُ خارج الكوخ، ثم مضى صاعداً فى الطريق لإيقاظ الغلام .

كان يرتعد من برد الصباح ، ولكنه كان يعرف أنه سيشعر بالدفء ، إذ سرعان ما سيشرع فى التجذيف عبر البحر .

كان باب البيت الذى يقيم فيه الصبى غير مُوصَد ، ففتحه العجوز ومضى حافى القدمين فى هدوء إلى الداخل . كان الصبى ينام فوق سرير صغير فى أول حجرة ، واستطاع العجوز أن يراه بوضوح عبر الضوء المنبعث من القمر الذى قارب الزوال . أمسك بإحدى قدميه برفق ، وظل ممسكاً بها حتى صحا الصبى، واستدار ناظراً إليه .

أومأ إليه العجوز بتحية الصباح .

تناول الصبى « بنطلونه » من فوق المقعد المجاور للسرير ، ثم جلس على الفراش ليرتدى « بنطلونه » .

انسلَّ العجوز خارجاً ، وتبعه الصبى . كان النوم لا يزال يداعب أجفانه، فوضع العجوز ذراعه حول كتفى الغلام وقال :

ـ أنا آسف .

فقال الصبى :

ـ كلا . . لا داعى للأسف ! إن هذا ما يجب أن يفعله أى رجل .

سارا عبر الطريق إلى كوخ العجوز وسط الظلام . كان هناك رجال حُفاة الأقدام يتحركون وهم يحملون صوارى مراكبهم .

وحين وصل الصبى والعجوز إلى الكوخ ، حمل الصبى حبال الصيد فى السلة ، والرمح والخطاف ، وحمل العجوز الصارى فوق كتفه .

التفت الغلام إلى العجوز وسأله :

ـ أتُريد قدحاً من القهوة ؟

ـ سنضع المعدات فى المركب ، ثم نحتسى بعضَ القهوة .

وحصلا على قهوة باللبن من دكان يفتح أبوابه فى الصباح الباكر ليقدم خدماته للصيادين .

ابتدأ الصبى ينتبه الآن بعد أن فارق النوم عينيه ، برغم أنه لم يزل يشق عليه أن يتخلى عن النوم .

سأل الصبى صاحبه :

ـ كيف نمت أيها العجوز ؟

فأجابه العجوز :

ـ نومة طيبة جـدًّا يا « مانولين » . إننى أشعر اليوم بالثقة .

فقال الصبى :

ـ وأنا أيضاً أشعر مثلك بالثقة . والآن يجب أن آتى بنصيبك ونصيبى من السردين ، وأن أزودك بالطعم الطازج أيضاً . إن الصياد الذى أعمل معه يحمل معداتنا بنفسه ، إنه لا يحب أن يحمل له أحد أى شىء .

حينئذ قال العجوز :

ـ نحن مختلفان ، لقد جعلتك تحمل الأشياء عندما كنتَ فى الخامسة من عمرك .

فقال الغلام :

ـ أعرف ذلك . . سأعود حالاً . . تناولْ قدحاً آخر من القهوة ، فكل ما نأخذه هنا على الحساب .

ومضى الغلام يسير فوق الصخور المرجانية حافى القدمين صوب الثلاجة حيث يخزن الطُعم .

شرب العجوز قهوته ، وكانت هى كل ما يستطيع أن يحصل عليه منها ، وكان يعلم أنه ينبغى عليه أن يحتسيها ، فمنذ وقت طويل صار الطعام مصدر إزعاج له ، فلم يعد يحمل معه أية وجبة غذائيه . كان معه زجاجة ماء يضعها فى حَنِيَّة المركب ، وكان ذلك هو كل ما يحتاج إليه فى يومه .

عاد الصبى الآن ومعه السردين والطعم ملفوفين فى إحدى الجرائد .

سارا معاً صوب المركب وهما يشعران بالحصى الذى يفترش الرمال تحت أقدامها العارية ، ولم يلبثا أن رفعا المركب ودفعاه حتى انزلق فوق الماء .

ـ حظًّا سعيداً أيها العجوز !

فقال له الرجل :

ـ حظًّا سعيداً .

ثَبَّتَ العجوز مجذافيه فى موضعهما ، وانحنى إلى الأمام، وبدأ يجذف خارجاً من المرفأ تحت جنح الظلام . كانت هناك زوارق من الشواطىء الأخرى تشق طريقها إلى البحر .

كان العجوز يسمع صوت مجاذيفها وهى تضرب صفحة الماء وتدفعه ، وإن لم يكن يراها الآن ، حيث توارى القمر خلف التلال .

وقد يتحدث أحدهم أحياناً وهو فى قاربه ، غير أن معظم الزوارق كانت صامتة ، اللهم إلا صوت ارتطام المجاذيف بالماء .

وما كادت الزوارق والمراكب تغادر الميناء حتى تفرقت مبتعدة عن بعضها البعض ، وكل منها يسعى نحو البقعة التى يأمل أن فيها سمكاً وفيراً فى المحيط .

كان العجوز يعرف أنه قد عقد العزم على أن يتوغل بعيداً ، وها هو ذا يخلف وراءه رائحة الأرض ، وراح يضرب الماء بمجذافيه صوب رائحة المحيط فى الصباح الباكر الصافى .

شاهد العجوز الوميض الفوسفورى المنبعث من أعشاب الخليج حين كان يجذف فوق تلك البقعة من المحيط التى يُطلق عليها الصيادون « البئر العظيمة » حيث يوجد عندها عمق مفاجىء يصل إلى سبعمائة قامة . وعندها تتجمع الأسماك بسبب الدوامة التى يحدثها تيار الماء هناك ، وعندها نجد تجمعات من سمك القُرَيدس ، وسمك الطُعم ، وأحياناً قطعاناً مائية من الحبَّار فى الثقوب العميقة ، وهى تطفو قريباً من السطح ليلاً حيث تتغذى عليها جميع الأسماك التى تطوف متجولة حول البئر .

إن العجوز يستطيع وسط الظلمة أن يحس بمقدم الصباح ، وبينما كان يجذف إذ سمع صوتاً مهتزًّا مرتعشاً ، كالذى يخلفه السمك الطائر وهو يغادر الماء ، وتلك الهَسْهَسَة التى تطلقها أجنحته الصلبة القوية وهو يرتفع محلقاً فى الجو تحت جنح الظلام .

كان مغرماً بالأسماك الطائرة فهن صديقاته الأثيرات وسط المحيط . . كان يشعر بالأسى والشجن من أجل الطيور ، وخاصة طيور « الخَـرْشَنَة »

المائية الرقيقة السمراء التى كانت دائمة التحليق فوق الماء باحثة عن رزقها بدون أن تظفر بشىء . واستغرق فى التفكير . . إن الطيور تعيش حياة أقسى من حياتنا نحن البشر ، فيما عدا الطيور السارقة والطيور الضخمة الثقيلة الوطأة . لماذا خُلقت الطيور الصغيرة بهذه الرقة ، والمحيط بهذه القسوة؟ إن المحيط رقيق ورائع ، ولكنه يستطيع أن يكون قاسياً ويتغير على هذا النحو فجأة ، ومثل تلك الطيور المحلقة تغوص وتتصيد . . إنها بأصواتها الرقيقة الحزينة أرق من أن تواجه البحر .

كان العجوز دائم التفكير فى البحر ويسميه « لا مار » كما اعتاد الناس أن يسموه بالإسبانية عندما يعشقونه . وفى بعض الأحيان ينعته أولئك الذين يحبونه بأشياء سيئة ، ولكنهم برغم ذلك يقال إنهم يتحدثون عنه كما لو كانوا يتحدثون عن أنثى .

أما شباب الصيادين الذين يستخدمون العوامات كمنصات عائمة لحبال صنانيرهم وشباكهم ، والذين لديهم زوارق مزودة بمحركات آلية ابتاعوها حينما كانت أكباد أسماك القرش تغل كثيراً من النقود ، فإنهم عندما يتحدثون عن البحر يقولون بالإسبانية « إل مار » فيجعلونه مذكراً لا مؤنثاً (وهو مذكر في اللغة الإسبانية) . وكانوا يتحدثون عنه كمنافس أو كمجرد مكان أو حتى كعدو لدود .

ولكن العجوز كان يفكر فيه دائماً كأنثى ، وكشىء يمنح هدايا عظيمة أو يحتبسها محتفظاً بها لنفسه ، وإذا صدرت منها أمور وحشية أو خطرة مؤذية فإنما لأنها لا تتمالك نفسها .

كما أنه كان يعتقد أن للقمر تأثيره على البحر كما يؤثر على المرأة .

ظل العجوز يجذف بثبات بدون أن يستشعر جهداً منذ أن احتفظ بسرعة مناسبة ، وكان سطح المحيط مصقولاً كصفحة المرآة ، اللهم إلا بضع دوامات يحدثها التيار أحياناً عرضاً واتفاقاً . وقد ترك الرجل التيار يضطلع بثلث العمل .

بدأ مصباح النهار ينبلج فرأى العجوز أنه قد أوغل فى البحر متجاوزاً ما كان قد قدَّره لنفسه أن يجتازه حتى هذه الساعة .

وهمس لنفسـه :

ـ لقد سبرت أغوار الآبار السحيقة طوال أسبوع كامل بدون أن أظفر بشىء .

وواصل العجوز الحديث مع نفسه :

ـ اليوم سأقتفى آثار قطعان « البينيت » (سمك استوائى من فصيلة التونة) والبكورة (سمك بحرى كبير من فصيلة السقمرى) فربما ظفرت بسمكة كبيرة معهما .

وقبل أن يكتمل ضوء الصباح أعد العجوز ما لديه من الطعم ، ومضى قدماً مع التيار ، وها هو ذا الطعم الأول وصل إلى عمق أربعين قامة ، والثانى إلى خمس وسبعين ، أما الثالث والرابع فقد ألقى بهما إلى عمق سحيق فى المـاء الأزرق . . مـائة قـامة . . ومـائة وخمس وعشريـن قامـة .

وكان كل طُعم معلقاً مقلوباً رأساً على عقب ، وقد ربط وحِيكَ بعناية حول الخطاف وساقه الموجودة داخل اللحم . فى حين كان الجزءُ المنحنى البارز من الخطاف وسنه الحاد مُغَـطًّى بالسردين الطازج . وفى رأس كل

سردينة خطاف مزدوج له طرف فى كل عين ، بحيث يتكون من ذلك نصف حلقة حول الفولاذ الناتىء .

لم يكن هناك جزء من الخطاف لا تحس فيه أية سمكة كبيرة بنكهته الحلوة، ومذاقه الطيب .

كان الصبى قد أعطاه سمكتين صغيرتين طازجتين من التونة ، وقد علقهما العجوز كريشتين فى حبال الصيد الغائرة فى العمقِ السحيق .

أمَّا الحبلان الآخران فينتهى أحدهما فى الماء بنبات أزرق ذى سوق مدادة ، والآخر بسمك أصفر صغير السن من سمك سليمان ، كان العجوز قد استخدمهما من قبل ، ولكنهما كانا مازالا فى حالة طيبة . ووضع معهما سردينا من طراز ممتاز ليعطيهما نكهة طيبة ، ويكسبهما جاذبية .


القسم الثاني

كــان كل حبل من حبال الصيد فى سُمْكِ قلم رصاص كبير ، وقد ثبت به عصاً خضراء بأنشوطة ، بحيث إن أية جذبة أو لمسة تصيب الطعم تكون كفيلة بتحريك العصا ، وجعلها تغطس فى الماء . وكل حبل معه لَفَّتَان ، يبلغ طولهما ٢٤٠ قدماً ، ويمكن تثبيتهما بإحكام فى لفات أخرى إضافية ، حتى يمكن عند الضرورة أن تجذب إحدى الأسماك ما يبلغ عمقه ألفاً وثمانمائة قدمٍ من الحبال .

وراقب العجوز اهتزازات العِصِىِّ الثلاث ، وراح يجذف برفق لكى يحفظ لكل حبل غوره . وازداد الضوء وضوحاً ، وأوشكت الشمس أن تبرز من خدرها .

أشرقت الشمس من وراء البحر فاستطاع العجوز أن يرى بقية القوارب متناثرة فوق سطح الماء حتى الشاطىء .

ثم ارتفعت الشمس فى السماء ، وسقطت أشعتها على صفحة الماء ، وانعكست متألقة كالفضة على عينى العجوز فآلمته ، واستمر يجذف بدون أن ينظر إلى سطح البحر ، واكتفى بمراقبة حركات حباله فى الأعماق السحيقة ، وأحكم الرجل مواضعها ، بحيث يهبط كل طعم إلى المستوى الذى يريده له تماماً انتظاراً لأى سمكة تندفع نحوه . أما غيره من

الصيادين، فإنهم يتركون حبالهم للتيار يعبث بها ، حتى إنها أحياناً قد تكون على عمق ثلاثمائة وستين قدماً وهم يظنون أنها هبطت إلى ستمائة قدم .

استغرق العجوز فى التفكير وهو يقول فى نفسه :

ـ إننى أحتفظ بمواقع ما ألقى به من طُعم بدقة ، غير أن الحظ قد تخلى عنى، ولكن مَن يعلم ؟ لعله يحالفنى اليوم ، فكل يوم هو يوم جديد . من الأفضل أن يكون الإنسان محظوظاً ، ولكننى أوثر إذا عملتُ عملاً أن أتقنه، حينئذ إذا جاء الحظ يكون المرء متأهباً لاستقباله .

مرت ساعتان اشتد بعدهما ارتفاع الشمس ، ولم يعد وهجها يؤذى عينى العجوز كثيراً حين ينظر نحو الشرق . . إنه الآن لم يجد سوى ثلاثة قوارب على مرمى البصر بالقرب من الشاطىء .

وقال العجوز فى نفسه :

ـ طوال حياتى آذت شمس الصباح الباكر عينىَّ . ومع ذلك فما زالتا بخير ، وأستطيع أن أُحدق فى الشمس مباشرة عند المساء قبل أن يهبط الظلام، حيث تكون محتفظة ببعض قوتها أيضاً ، أما فى الصباح فهى مؤلمة .

وفجأة رأى العجوز طائراً من الطيور المغردة يحوم فوقه فى السماء مرفرفاً بجناحيه الأسودين الطويلين ، ثم هبط سريعاً وهو ينحدر بجناحيه نحو الماء ، ولم يلبث أن أخذ يحوم فى السماء مرة أخرى .

قال العجوز لنفسه :

ـ إنه لم يكن يبحث . . بل لقد لمح شيئاً .

جذَّف العجوز فى الماء وئيداً وبثبات نحو الموضع الذى كان يحوم حوله

الطائر ، وشق طريقه إلى الأمام مزاحماً التيار فى رفق بدون أن يهمل استقامة حباله فى الماء ، وبأسرع مما كان يفعله إذا لم يكن يحاول تتبع الطائر .

ارتفع الطائر فى الجو ، وحام مرة أخرى باسطاً جناحيه بدون أن يحركهما ، ثم هبط فجأة منقضًّا على الماء ، ورأى العجوز سمكة من السمك الطيار تشق الماء وتقفز خارجة منه ، ثم طفت يائسة فوق سطح البحر .

صاح العجوز :

ـ دلفين . . دلفين ضخم !

أخرج مجذافيه من الماء وأدخلهما فى المركب ، وأحضر حبلاً صغيراً من قاع حنية المركب ، وكان ينتهى بسلك متصل بآخره خطاف متوسط الحجم ثبت فيه طعماً من السردين ، وعقد طرف الحبل فى حلقة مثبتة فى مسمار بمؤخرة المركب .

ثم أعد حبلاً آخر ، وزود خطافه بالطعم ، وتركه فى حنية المركب .

وعاد يجذف وهو يراقب الطائر الأسود الذى راح الآن يرفرف بجناحيه الطويلين هابطاً إلى قرب سطح الماء .

شاهد الطائر ينقض مرة أخرى وهو يضرب بجناحيه بقوة وضراوة وهو يتتبع السمك الطائر . واستطاع العجوز أن يرى نتوء الماء المنتفخة التى رفعها الدلفين الضخم فى حين كان هو والطائر يتعقبان الأسماك الهاربة ، وكان الدلفين يشق الماء أسفل الأسماك الطائرة ماضياً بسرعة عندما غاصت الأسماك .

وظن الرجل العجوز أن سرباً من الدلافين انتشر فى الماء ، وأن فسحة

الأمل فى النجاة قد ضاقت أمام السمك الطائر . ولم يعد هناك أمل للطائر فقد كانت الأسماك الطائرة ضخمة بالنسبة إليه ، وأسرع منه .

ظل العجوز يرقب الأسماك الطائرة وهى تنطلق من الماء المرة تلو المرة ، والطائر يتعقبها من غير طائل .

وحدث العجوز نفسه قائلاً :

ـ لقد ابتعد عنى سرب الأسماك الطائرة ، وأصبحت الشُـقَّة بينى وبينه طويلة ، فهو يتحرك بسرعة كبيرة ، ولكن لعلنى ألتقط سمكة ضالة شاردة، ولعلها تكون ضخمة ، ولا بد أن تكون سمكتى الكبيرة التى أنشدها موجودة فى مكان ما .

ارتفعت السحب المنعقدة فوق الأرض حتى بدت كأنها الجبال ، وظهر الشاطىء من بعيد كخط أخضر طويل تطل من ورائه التلال الزرقاء الرمادية .

وأصبح لون الماء أزرقَ حالكاً مُشوباً بلون أرجوانى ، وعندما تمعَّن فيه العجوز شاهد بقعاً حمراء من العوالق المكونة من كائنات حيوانية أو نباتية صغيرة معلقة فى المياه القاتمة أو طافية فوقها ، والضوء العجيب الذى تبعث به الشمس الآن ، وراقب حباله ليتأكد من أنها مغمورة فى أعماق المياه ، وغمرته السعادة وهو يرى مزيداً من العوالق ؛ لأن هذا معناه وجود الأسماك، وكان الضوء الغريب الذى ترسله الشمس فى الماء بعد أن ازدادت علوًا فى السماء بشيراً بجو طيب يؤكده شكل السحب المطلة فوق الأرض . ولكن الطائر كاد يغيب الآن عن مرمى البصر ، ولم يعد على سطح الماء سوى بضع بقع من طحالب السرجس البحرية التى أحالتها الشمس إلى

اللون الأصفر ، وحيوان البارجة البرتغالية كان طافياً بالقرب من المركب ، وهو حيوان من الأبابيّات ، أعلاه مُشَكَّلٌ كهيئة مثانة هلامية بألوان زاهية كألوان قوس قزح ، وقد تحرك على جنبه ثم استوى فى وضعه الطبيعى . وكان منظره بهيجاً وهو يطفو كفقاعة تمتد خلفها خيوط وشعيرات قرمزية مهلكة مميتة إلى مدى باردة فى الماء .

ومال الرجل ناحية أحد مجذافيه ، ونظر إلى ما تحت الماء ، فرأى سميكات صغيرة كانت فى مثل لون الخيوط والشعيرات ، وكانت تسبح تحت الظل الذى تلقيه الفقاعة فى أثناء تحركها وبين تلك الشعيرات القرمزية المميتة ، وكانت تلك السميكات لديها مناعة ضد سم هذه الشعيرات ، ولكن الإنسان لم يكن يتمتع بتلك المناعة ، وعندما تلتصق بعض تلك الخيوط والشعيرات القرمزية اللزجة بأحد الحبال فإن الرجل العجوز حين كان يتعامل مع إحدى الأسماك فإنه يُصاب بآثار وقروح مؤلمة فى ذراعيه ويديه ، كتلك التى يحدثها اللبلاب السام ، أو البلوط السام ، غير أن التسمم من تلك المياه يحدث سريعاً ، وله لسعات السياط .

وكم كانت جميلة تلك الفقاعات المتلونة بألوان قوس قزح ، ولكنها كانت أكثر الأشياء زيفاً فى البحر ، وكان العجوز يلذ له أن يشاهد السلاحف البحرية الضخمة وهى تأكلها . واقتربت السلاحف منها عندما وقع بصرها عليها ، وواجهتها من الأمام ، ثم أغلقت عينيها حتى أصبحت خلف غطائها العظمى تماماً ، والتهمت الخيوط والشعيرات وانتهى الأمر . هذا المشهد يحبه العجوز ، كما كان يحب أن يسير فوق ظهور تلك السلاحف على الشاطىء ، بعد أن تهدأ العواصف ، فيستمتع بسماع القرقعة وهو يخطو فوق درقاتها بأخمص قدميه الصلبتين الخشنتين المتقرنتين .

وكان يؤثر السلاحف الخضراء وسلاحف البحر بأناقتها وسرعتها ومنفعتها الكبيرة ، وله صداقة جديرة بالازدراء نحو السلاحف البحرية الكبيرة من ذوات الدروع الصفراء والرءوس الضخمة ، والتى تتصف بالغباء، وغرابة الغزل الذى يمارسه الذكور نحو الإناث التى تلتهم حيوانات البوارج البرتغالية وهى مغلقة العينين .

لم يكن صيد السلاحف يروق له ، برغم أنه عمل فى مراكب صيادى السلاحف سنينَ عدة .

كان يأسف لها جميعاً ، ويشعر بالحزن من أجلها ، حتى السلاحف الضخمة التى يمتد طول درقاتها إلى طول الزورق ، والتى كانت تزن طنّـاً .

ومعظم الناس من متحجرى القلوب ، وخلت أفئدتهم من الرحمة والشفقة إزاء السلاحف ، إذ يظل قلب السلحفاة يخفق وينبض عدة ساعات بعد استئصاله من السلحفاة المذبوحة ، ولا يؤثر ذلك فيهم . وكان العجوز يقول لنفسه :

ـ أنا أيضاً لى مثل ذلك القلب ، ولى يدان وقدمان كأيدى وأقدام السلاحف .

كان يأكل بيضها الأبيض ليُكْسِبه قوة ، وكان يأكل السلاحف أيضاً طوال شهر مايو حتى يشتد ساعداه فى سبتمبر وأكتوبر ليقوى على مواجهة الأسماك الضخمة خلالهما .

كما كان يشرب قدحاً من زيت كبد القرش كل يوم من البرميل الموجود بالكوخ الذى يضع فيه كثير من الصيادين معداتهم . وهو هناك من أجل كل الصيادين الذين يبتغونه . ويكره أكثر الصيادين مذاق الزيت ، فى حين

أن مذاقه ليس أشد قسوة من مرارة الساعة التى ينهضون فيها من مضاجعهم فى الصباح الباكر ، كما أن ذلك الزيت دواء ناجع لمقاومة نزلات البرد والإنفلونزا ، فضلاً عن أنه مفيد للأعين .

تطلع العجوز الآن إلى أعلى فرأى الطائر يحوم مرة أخرى ، فقال بصوت عالٍ :

ـ لقد اكتشف سمكاً .

لم ير العجوز فى هذه المرة سمكاً طائراً ، أو سمكَ طُعم مبعثراً على سطح الماء .

وشاهد سمكة صغيرة من نوع التونة تعلو فى الهواء ثم استدارت وهوت برأسها فى الماء .

كانت سمكة التونة تتألق كالفضة فى وهج الشمس ، وما كادت تعود هابطة إلى الماء حتى برزت أخرى وكثيرات غيرها وهُنَّ يَثِبْنَ فى كل اتجاه ، فأزبد الماء وتحرك مضطرباً ، فى حين كانت أسماك التونة تقفز قفزات عالية وراء سميكات الطعم ، مُحاصِرَةً إياها ثم تهبط بها .

وحدث العجوز نفسه قائلاً :

ـ إذا لم تمضِ بعيداً فسأفوز بها .

وجعل يراقب سرب الأسماك الذى جعل لون الماء مبيضًّا . وكان الطائر يهبط ويغوص وراء سميكات الطعم التى أجبرت على أن تلوذ بالسطح تلتمس النجاة بعد أن أصيبت بذعر مفاجىء .

وقال العجوز :

ـ إن ذلك الطائر عَوْنٌ كبير لى .

وسرعان ما شعر بالحبل الموجود فى مؤخرة المركب يتوتر تحت قدمه ، حيث كان قد عقد أنشوطة به ، احتفظ بها أسفل باطن قدمه . أسقطَ مجذافيه فى المركب ، وشعر بثقل سمكة التونة وهى تهتز وترتعش ، فأمسك بالحبل بقوة ، وبدأ يجذبه . . زاد ارتعاش السمكة وهو يوالى جذب الحبل ، واستطاع أن يرى ظهرها الأزرق ، وجوانبها الذهبية ، وهى فى الماء قبل أن يطوح بها فى الهواء ، ويُسقطها داخل المركب . ورقدت السمكة فى المؤخرة تحت الشمس ، وكانت مكتنزة ولها شكل الرصاصة ، وأخذت تحملق بعينيها الكبيرتين اللتين يعوزهما الذكاء وهى تصارع من أجل الحياة ضاربة ألواح المركب الخشبية ضربات مرتعشة سريعة بذيلها الدقيق الأملس الناعم .

ضربها الرجل العجوز على رأسها بدافع الشفقة ، وركلها بقدمه ، غير أن جسدها كان لم يزل يرتعد ويرتجف عند مؤخرة المركب .

صاح العجوز :

ـ إنها البكورة (نوع من السمك البحرى الكبير من فصيلة السقمرى) .

ثم أردف :

ـ إنها تصلح لأن أصنع من لحمها طعما جميلاً ، إنها تزن نحو عشرة أرطال .

إنه لا يتذكر متى بدأ يتحدث إلى نفسه بصوت عالٍ حينما يكون وحده .

كان يغنى إذا ما خلا إلى نفسه فى الأيام القديمة ، وكان أحياناً يغنى فى

الليل وهو يدير الدفة فى المراكب الشراعية وحيدة الصارى ، أو فى مراكب صيد السلاحف .

ومن المحتمل أنه بدأ يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع حين يكون وحده ، بعد أن تركه الصبى الذى كان يعمل معه .

وعندما كان يمارس الصيد هو والصبى كانا عادة يتحدثان معاً عندما تدعو الضرورة إلى ذلك فقط . . كان حديثهما دائماً فى أثناء الليل ، أو فى الأحوال الجوية السيئة حينما تواجههما العاصفة . ذلك أنه من الأفضل عدم الحديث فى البحر بدون داعٍ ، وكان العجوز يحترم تلك الفضيلة على الدوام .

أما الآن فإنه يتحدث مرات عديدة إلى نفسه مُعرباً عن أفكاره بصوت مرتفع ما دام وحده ، وليس هناك من يزعجه بثرثرته .

تحدث العجوز إلى نفسه بصوت مرتفع قائلاً :

ـ إذا سمعنى الآخرون أتحدث إلى نفسى بصوت مرتفع فسيظنون أننى مجنون ، ولكننى لما كنت ليس كذلك فإننى لا أبالى . إن أثرياء الصيادين يمتلكون أجهزة الراديو تتحدث إليهم فى مراكبهم ، وتنقل لهم أنباء «البيسبول» .

ثم قال لنفسه :

ـ والآن ليس هذا أوان التفكير فى « البيسبول » ، بل إنه الوقت الذى أفكر فيه فقط فى أمر واحد ، هو ذلك الذى خُلقت من أجله .

وبدا على العجوز اهتمام جدِّى وهو يهمس :

ـ قد تكون هناك سمكة ضخمة حول هذا السرب ، لقد التقطت فقط سمكة واحدة شاردة من سرب سمك السقمرى الكبير ، ولكنه رحل بعيداً وسريعاً . إن كل ما يطفو اليوم على سطح الماء يمضى بسرعة فائقة نحو الشمال الشرقى ، أيكون ذلك من عادات الأسماك فى مثل هذا الوقت من اليوم ، أم لعلها تكون علامة من علامات الطقس لا أعرفها ؟

لم يكن فى استطاعته الآن أن يرى خضرة الشاطىء اللهم إلا قمم التلال الزرقاء التى بدت بيضاء كأنما تَـوَّجَتْهَا الثلوج ، كما تراءت له السحب كما لو كانت جبالاً عالية من الثلج فوق القمم .

ازداد البحر قتامة ، وتشكل الضوء على هيئة منشورات ثلاثية فى الماء . إن الآلاف التى لا تُعَـدُّ ولا تُحصى من نقاط وبقع العوالق المكونة من كائنات حيوانية أو نباتية صغيرة معلقة قد انْمَحَـتِ الآن بتأثير ضوء الشمس الساطعة، ولم يعد العجوز يرى سوى المنشورات الضوئية التى تبدو ممتدة إلى أعماقٍ سحيقة عبر المياه الزرقاء مع حباله الغائصة فيها إلى مسافة تبلغ الميل عمقاً .

كان الصيادون يطلقون على الأسماك من نوع ذلك السرب اسم « التونة » ولا يميزون بينها بأسمائها الصحيحة إلا عندما يبيعونها فى الأسواق أو يعدون منها الطعم .

اشتدت حرارة الشمس الآن ، وأحس العجوز بلسعتها فى قفاه ، وشعر بالعرق يقطر ويسيل هابطاً إلى ظهره وهو يضرب بمجذافيه فى الماء .

وحدَّث نفسه قائلاً :

ـ يمكننى أن أدع المركب ينساب مع التيار ، وأخلد إلى النوم بعد أن

أُثَبِّتَ أُنشوطة من الحبل حول إصبع قدمى ليوقظنى فى الوقت المناسب، ولكن اليوم يكون قد مضى خمسة وثمانون يوماً ، ولا بد أن أظفر فيه بصيد جيد .

وفى هذه اللحظة لمح ، وهو يرقب حباله ، عصاً من عِصيه الخضر البارزة فوق الماء تنغمس بشدة ، فقال بصوت مسموع :

ـ نعم . . نعم . .

أخرج مجذافيه من الماء وأدخلهما إلى المركب بدون أن يتزحزح من مكانه . ومضى إلى الحبل فأمسك به فى رفق بين إبهام وسبابة يده اليمنى ، لم يحس أى توتر ولا أى ثقل ، فأمسك الحبل بخفة .

ثم تكرر ما حدث مرة أخرى ، وكانَتْ جَذْبَـةً مترددة ، فلم تكن عنيفة ولا خفيفة ، ففهم ما هنالك تماماً .

كانت هناك على عمق ستمائة قدم سمكة « مرلين » (سمك إقيانوسى ضخم) تلتهم السردين الذى يغطى طرف وساق الخطاف الذى يبرز من رأس سمكة التونة الصغيرة .

أمسك العجوز الحبل بيده اليسرى فى رفق وتؤدة ، وحرره من العصا ليجرى بين أصابعه بدون أن تشعر السمكة بأى توتر .

وحدَّث العجوز نفسه قائلاً :

ـ عند ذلك العمق السحيق ، لا بد أن يكون فم السمكة ضخماً .

وأضاف قائلاً :

ـ تناوليها أيتها السمكة . . تناوليها . . أرجوكِ تناوليها . كم هى أسماك

طازجة وأنت على عمق ستمائة قدم فى الماء البارد الحالك السواد . . قُومى بجولة أخرى فى الظلام ، وعودى لتتناوليها .

شعر بجذبة خفيفة رقيقة ، ثم بأخرى أشد منها ، حيث إنه من الصعب أن تخلص رأس السردينة من الخطاف .

ثم لم يعد يشعر بشىء .

قال العجوز بصوت عالٍ :

ـ تَعَالَـىْ . .

واسترسل قائلاً :

ـ قُومِى بجولة أخرى ، تشمميها فقط . . أليست لذيذة ؟ تناوليها الآن ثم ستظفرين بعد ذلك بالتونة جافة وباردة وشهية . . لا تخجلى أيتها السمكة . . تناوليها .

انتظر وهو ممسك بالحبل بين إبهامه وسبابته ، وراح يرقبه ويرقب الحبال الأخرى فى نفس الوقت ، لعل السمكة تسبح صاعدة أو هابطة .

ثم جاءت الجذبة الخفيفة الرقيقة مرة أخرى .

فصاح العجوز :

ـ ستأخذها .

ثم قال :

ـ اللهم أَعِنْهَا لتأخذها .

غير أن السمكة لم تأخذها ، بل ابتعدَتْ عنها . . ولم تعد أصابع العجوز تحس شيئاً .

وقال العجوز :

ـ لا أظن أنها ابتعدت . . الله وحده يعلم . . وقد تكون فى جولة . . وربما عانت من أحد الخطاطيف قبل ذلك ، ومازالت تتذكر شيئاً منه .

ثم شعر بلمسة خفيفة فى الحبل ، فجرفته السعادة وقال :

ـ لم تكن سوى جولة قامت بها .

وهمس لنفسه :

ـ ستتناولها .

غمرته السعادة وهو يشعر بالجذبة الخفيفة ، ثم أحس بشىء ثقيل . . أثقل مما يتصور .

كان ذلك بسبب ثقل السمكة ، فأرخى العنان للحبل ، وجعله ينساب هابطاً إلى أسفل ، وفك معه إحدى اللَّفَّتَيْنِ الاحتياطيتين . وبينما كان الحبل يهبط من بين أصابع الرجل العجوز ، كان لا يزال يشعر بالثقل الكبير ، برغم أن الإحساس بالضغط على الإبهام والسبابة كان ضئيلاً .

قال العجوز :

ـ أية سمكة هذه ؟ . . إن الخطاف فى جانبى فمها الآن ، وهى تصعد معه إلى أعلى .

ثم فكر بينه وبين نفسه بأنها ستستدير وتبتلعه .

لم يقل ذلك ؛ لأنه كان يعتقد أن الإنسان إذا تحدث عن شىء من الخير مُقبل عليه ، فربما لا يُقبل ذلك الخير أبداً .

كان يعلم مدى ضخامة تلك السمكة ، وفكر فى أنها تتحرك فى الأعماق المظلمة ، وسمكة التونة تعترض فمها .

وفى تلك اللحظة أحس أن حركة السمكة قد توقفت ، ولكن ثقلها مازال موجوداً .

ثم ازداد الثقل فأرخى العنان للحبل أكثر مما كان . وشدد من ضغط إبهامه وسبابته للحظة ، فشعر بزيادة الوزن ، وأن هناك هبوطاً إلى أسفل .

وقال الرجل :

ـ لقد تناولتها . . والآن سأجعلها تأكلها جيداً .

ترك الحبل ينزلق من بين أصبعيه ، فى حين راح يثبت بيده اليسرى الطرف السائب من اللفتين الاحتياطيتين إلى أنشوطة اللفتين الخاصتين بالحبل التالى، إنه الآن على أهبة الاستعداد ، فلديه ثلاث لفائف احتياطية من الحبال ، طول كل واحدة منها يبلغ مائتين وأربعين قدماً ، بالإضافة إلى اللفة التى يستعملها حاليًّا .

وصاح الرجل :

ـ كُليها . . كُليها جيداً .

ثم قال :

ـ كليها حتى يخترق طرف الخطاف قلبك ويقضى عليك . اصعدى فى يُسر ، ودعينى أطعنك بالرمح . حسناً . . هل أنتِ متأهبة الآن ؟ هل طال وقت استمتاعك بمائدة الطعام ؟

وصاح عالياً :

ـ الآن !

ثم جذب الحبل بيديه الاثنتين فاستطاع أن يرفع الحبل إلى مدى ياردة ، ثم أخذ يجذب ويجذب وهو يتأرجح مع كل ذراع بالتبادل مستجمعاً كل قوى ذراعيه وجسده .

غير أنه لم يحدث شىء .

لقد تحركت السمكة مبتعدة فى هوادة ، ولم يستطع العجوز أن يرفعها بوصة واحدة .

كان حبله قويًّـا ، وقد صُنع خصيصاً من أجل الأسماك الثقيلة . أمسك الرجل بالحبل وأسنده إلى ظهره حتى أصبح مشدوداً إلى درجة أن حبيبات الماء كانت تقفز منه ، ثم بدأ يسمع للحبل هَسْهَسَة فى الماء ، وكان مازال ممسكاً به ، وازداد التصاقاً بمقعد التجذيف وهو ينحنى بكل جسمه فى اتجاه مضاد للجذب .

بدأ المركب يتحرك صوب الشمال الغربى .

وتحركت السمكة بثبات ، وسارا معاً فى المياه الهادئة .

كانت بقية الحبال لا تزال تحمل طعومها فى المياه ، بدون أن يكون هناك شىء يستوجب العمل .

قال العجوز بصوت مرتفع :

ـ كم وددت أن يكون الصبى معى .

ثم أردف :

ـ إن سمكة تسحبنى ، وأنا الشىء الصغير المسحوب . كان فى إمكانى أن أسرع بجذب الحبل ، غير أن السمكة قد تفلت حينئذ منه . يجب أن أمسك بها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وأن أرخى لها العنان طالما كان ذلك أمراً من الواجب أن أفعله . . حمداً لله ، إن السمكة تمضى قُدماً ولا تهبط إلى أسفل .

وأضاف قائلاً لنفسه :

ـ ماذا عسانى أفعل لو أن السمكة قررت أن تهبط إلى أسفل ؟ لست أعلم. ماذا سأفعل لو أنها غاصت فجأة وماتت ؟ لا أدرى . ولكننى سأفعل شيئاً . هناك أشياء كثيرة يمكننى أن أفعلها .

شد العجوز الحبل إلى ظهره ، وراقب ميله فى المياه ، فى حين كانت المركب تمضى فى طريقها نحو الشمال الغربى .

ودار بخلد العجوز أن ذلك سيقتله ، إنه لا يمكنه أن يظل على تلك الحال إلى الأبد .

مُضت أربع ساعات والسمكة مازالت تسبح بثبات موغلة فى البحر وهى تقطر المركب ، وكان العجوز ملتصقاً بقوة إلى مقعد التجذيف والحبل مشدود إلى ظهره .

وقال لنفسه :

ـ كان الوقت ظهراً عندما اصطدتها بالخطاف ، ولم أرها قط .

وكان قد دفع بقبعته المصنوعة من القش بقوة فوق رأسه قبل أن يوقع السمكة فى شَـرَك الخطاف الذى نصبه لها ، وقد آلم القش جبهته من جراء

احتكاكه بها ، وقد استبد به العطش أيضاً ، فهبط فوق ركبتيه محاذراً ألاَّ يهتز منه الحبل ويرتج ، وزحف قدر إمكانه حتى حنية المركب ، ومَدَّ إحدى يديه لتصل إلى قارورة الماء ، ففتحها وشرب منها قليلاً ، ثم استراح عند الحنية جالساً بين الجزء الأدنى من الصارى والشراع ، وحاول ألاَّ يفكر ، بل آثر أن يوجه كل طاقته إلى الثبات والجَلَد والصبر .

ثم نظر خلفه فلم تتراء له أية أرض ظاهرة . فقال لنفسه :

ـ هذا لا يهم . . فلطالما جئت من « هافانا » ساعة الأصيل فى ضوء الشفق الأحمر الذى تتركه وراءها الشمس وهى تنتقل إلى الضفة الغربية من إقيانوس السماء . ولا تزال أمامى ساعتان قبل أن تغرب الشمس ، وقد تصعد السمكة قبل ذلك ، فإذا لم تفعل فلعلها تصعد عندما يبزغ القمر ، فإذا لم تفعل فلعلها تصعد مع شروق الشمس . ليس لدى أية تقلصات فى عضلاتى ، وأشعر أننى قوى . إنها السمكة التى تعانى من الخطاف فى فمها . . ولكن أية سمكة تلك التى تجرنى بهذا الشكل ؟ لا بد أن فمها مغلق بإحكام حول السلك . كم أتُوق إلى رؤيتها ! أوَد أن أشاهدها ولو مرة واحدة فقط حتى أعرف من يقف ضدى .

لم تغير السمكة من خط سيرها ولا اتجاهها طوال تلك الليلة ، كما أدرك العجوز ذلك من مراقبته للنجوم .

اشتد البرد بعد أن غربت الشمس ، وجف عرق الرجل العجوز ، فأحس به بارداً فوق ظهره وذراعيه وساقيه المعروقتين .

وكان قد التقط فى أثناء النهار الكيس الذى يغطى به صندوق الطعم ونشره فى الشمس ليجف . ولما غربت الشمس ربطه حول عنقه ، وجعله

يتدلى فوق ظهره ، ودفع به تحت الحبل الذى كان يلتف الآن حول كتفيه ، فأصبح وسادة للحبل ، ووجد طريقه لينحنى إلى الأمام قبالة حنية المركب ، فكان ذلك مريحاً بالنسبة إليه ، وفى الواقع كان ذلك الوضع أكثر احتمالاً ، ولكنه اعتبره مريحاً تقريباً .

وقال لنفسه :

لا يمكننى أن أصنع شيئاً مع هذه السمكة ، وهى لا تستطيع أن تفعل شيئاً معى طالما بقيت على تلك الحال .

نهض من مكانه ذات مرة واستوى واقفاً ، وبَالَ من فوق حافة المركب ، وتطلع إلى النجوم ليتحسس طريقه .

وكان الحبل المتدلى من كتفيه إلى الماء يبدو كشريط ضيق متألق من الوميض الفوسفورى .

أبطأ المركب فى سيره الآن ، وكانت أضواء « هافانا » تبدو خافتة ، فأدرك أن التيار كان متجهاً بهما صوب الشرق .

وقال فى نفسه :

ـ إذا اختفت أضواء « هافانا » عن ناظرى فلا بد أننا موغلون فى اتجاه الشرق .

ثم استطرد قائلاً :

ـ لأنه لو كانت السمكة سائرة فى الطريق الصحيح لوجب أن أرى أضواء « هافانا » لعدة ساعات أخرى .

وأردف قائلاً :

ـ إنى لا أعلم كيف ستسفر النتائج بين فريقى « البيسبول » الكبيرين . . كم يكون رائعاً أن أعلم ذلك من جهاز راديو وددت أن أملكه !

ثم عاود الحديث مع نفسه قائلاً :

ـ فكرْ دائماً فيما أنت فيه . . فكر فيما تفعله . . يجب ألاَّ ترتكب حماقة .

وقال بصوت عالٍ :

ـ وددتُ أن يكون الصبى معى ليعاوننى ، وليرى ذلك الموقف ، يجب ألاَّ يبقى المرء وحيداً إذا تقدمت سنه ، ولكن هذا لا يمكن تلافيه .

وهمس العجوز لنفسه :

ـ يجب أن أتذكر تناول التونة قبل أن تفسد ، حتى أحتفظ بنفسى قويًّا . . وتذكَّرْ أنك يجب أن تأكلها فى الصباح مهما قلت شهيتك إزاءها . . تَذَكَّرْ .

وفى أثناء الليل ، طاف زوج من الدلافين حول المركب ، واستطاع أن يسمع أصواتهما وهما يتمايلان ويتقلبان ويترنحان ويتقافزان مع قدرته على التمييز بين الصوت الذى يطلقه الذكر ، وصوت الأنثى .

وقال لنفسه :

ـ ما أبدعهما ! إنهما يتلاعبان ويمزحان ، ويحب كل منهما الآخر . . إنهما إخوة لنا ، كالأسماك الطائرة .

ولم يلبث أن شعر بالإشفاق على السمكة الضخمة التى علقت بخطافه .

وحدث نفسه قائلاً :

ـ إنها سمكة عجيبة وغريبة ! من يدرى كم تبلغ من العمر . لم يحدث قط فى حياتى أن ظفرت بسمكة بمثل تلك القوة ، ولا بواحدة تصرفت بهذا السلوك الغريب . . ربما كانت أمكر من أن تقفز . إنها تستطيع أن تدمرنى إذا قفزت ، أو إذا هاجمتنى هجوماً جامحاً عنيفاً مسعوراً ، أو لعلها تعرضت كثيراً من قبل للخطاطيف فتعلمت من ذلك كيف تقاوم وتقاتل ، ولكن أنَّى لها أن تعرف أنها تُنازِل رجلاً واحداً بمفرده ، وأنه رجل عجوز ؟ ترى ماذا يكون حجم تلك السمكة الضخمة ؟ وكم تدر من ربح فى السوق إذا كانت ذات لحم طيب ؟ لقد تناولَتِ الطُّعْم كسمكة من الذكور ، كما تسحبنى مثلما يفعل الذكر ، وتقاتل بدون أن تُصاب بذعر أو هلع ، وإنى لأتعجب ، أهى تسلك هذا وفقاً لخطة لديها أم أنها تناضل يائسة مثلى ؟

وتذكر يوماً وقعت فيه واحدة من زوج من أسماك المرلين الضخمة فى شَـرَك خطافه ، ومن عادة السمكة الذَّكَر أن تدع الأنثى تتناول طعامها أوّلاً. وراحت السمكة الأنثى التى علقت بالخطاف تناضل بضراوة مذعورة يائسة ، وسرعان ما أنهكها العراك ، واستنفد قواها .

لم يتخلَّ الذكر عنها ، وظل باقياً بجانبها طوال الوقت ، وهو يعبر الحبل مارًّا فوقه ، ويطفو معها إلى سطح الماء ، وبقى الذكر قريباً منها حتى خشى الرجل العجوز أن يقطع الحبل بذيله الذى كان حادًّا كالمنجل ، ويشبهه فى حجمه وشكله . وعندما طعنها العجوز بالرمح ، وضربها بهراوة ، ثم أمسك بمخلب المرساة ذى السطح الذى يشبه ورق السنفرة ، وعاود ضربها فوق رأسها حتى تحول لونها إلى ما يشبه السطوح الخلفية للمرايا ، ورفعها إلى

سطح المركب بمساعدة الصبى ـ فإن الذكر كان يقف بجانب المركب .

وحين كان العجوز يحرر الخطاف والحبال من السمكة ، ويعد الرمح ، قفز الذكر عالياً بجوار المركب ، لعله كان يريد أن يرى أين ذهبت السمكة الأنثى ، ثم هبط وغاص فى الماء . وبسط زعنفتيه الصدريتين ذَوَاتَىْ اللون الأرجوانى الشاحب على اتساعهما فبدتا مخططتين .. كان منظره بديعاً ، وظل بجانب المركب .

وعاد العجوز يهمس لنفسه فى تأثر :

ـ كان هذا الذى شاهدته من أقسى الأشياء التى قابلتنى ، وأشدها حزناً . . وقد حزن الصبى أيضاً ، وسألنا السمكة الأنثى الصفح ، وذبحناها فوراً بدون إبطاء .

وأستأنف العجوز حديثه بصوت مرتفع :

ـ وددت أن يكون الصبى معى .

وأسند نفسه على الألواح الخشبية المستديرة عند الحنية ، وشعر بقوة السمكة الضخمة من شدة توتر الحبل المعقود عبر كتفيه ، والمركب يجرى فى الاتجاه الذى اختارته السمكة .

وعاد يفكر قائلاً :

ـ كان على السمكة أن تختار على أثر غدرى بها .

لقد اختارت أن تمكث فى الماء القاتم العميق بعيداً عن جميع الشراك والفخاخ ووسائل الغدر .

ووقع اختيارى على أن أمضى معها لأعثر عليها بعيداً عن الناس جميعاً ، فيما وراء البشر أجمعين على وجه هذه البسيطة ، وها نحن الآن قد ارتبطنا معاً بمصير واحد منذ الظهيرة ، ولا من معين أو مغيث لأىٍّ منا .

وقال هامساً :

ـ ربما لم يكن خليقاً بى أن أكون صياداً ، ولكننى ولدت من أجل تلك المهنة .

وفجأة قال :

ـ لا شك أننى يجب أن أتذكر أن آكُلَ التونة بعد أن يبزغ الضوء .

وحدث قبل طلوع النهار أن شيئاً مَّـا قد قضم طعم أحد الحبال المتدلية خلفه ، وسمع صوت العصا تنكسر ، واندفع الحبل فوق الحافة العليا من جانب المركب .

أخرج سكينة من غمدها تحت جنح الظلام ، واحتمل كل ثقل الحبل المعلقة فيه السمكة الضخمة على كتفه اليسرى ، وانحنى إلى الخلف ، وقطع الحبل فوق خشب الحافة العليا من جانب المركب ، ثم قطع الحبل الآخر القريب منه ، وأحكم ربط الطرفين السائبين لحبلى اللفتين الاحتياطيتين بعضهما ببعض فى الظلام فجعلهما حبلاً واحداً .

كان يعمل بإحدى يديه بمهارة فائقة ، وضغط بقدمه على لفات الحبال لتثبت مكانها ريثما يربط الحبال جيداً . أصبح لديه الآن ست لفات من الحبال الاحتياطية . كان هناك لفتان من الحبال تتصلان بكل طعم من التى فصل بعضها عن بعض ، ولفتان أُخْـرَيان متصلتان بالحبل المنتهى بالطعم

ذى الخطاف الذى ابتلعته السمكة ، وأصبحت كلها مرتبطة بعضها ببعض .

وحدَّث نفسه قائلاً :

ـ عند بزوغ الفجر ، سأقطع الحبل الذى ينساب إلى عمق مائتين وأربعين قدماً وأَصِلُه باللفات الاحتياطية . . كنت على وشك أن أفقد ألفاً ومائتى قدمٍ من الحبال القطالونية ، والخطاطيف ، والأدوات المرشدة التى تقود السمك إلى الشَّرك . كل هذا يمكن تعويضه . ولكن ما الذى يعوضنى عن هذه السمكة إذا علقت بعض الأسماك بخطاطيفى وقطعت حبل تلك السمكة الكبيرة ؟ إننى لا أدرى ما نوع السمكة التى ابتلعت الطعم الآن . قد تكون من سمك « المرلين » ، أو من نوع « أبى سيف » (سمك بحرى طويل المنقار) ، أو من سمك « القرش » ، لم أحس بها قط ، ويجب علىَّ أن أتخلص منها على وجه السرعة .

ثم أردف بصوت عالٍ :

ـ كم أتمنى أن يكون الصبى معى !

واسترسل فى حديثه إلى نفسه قائلاً :

ـ ولكن الصبى ليس معى . . إنك وحدك ، ومن الأفضل لك أن تعمل حتى آخر حبل ، سواء فى الظلام أو فى غيره ، وعليك أن تقطعه ، وأن تربط لَفَّتِى الحبال الاحتياطيتين .

وهكذا قام بتنفيذ ذلك ، ولم يكن هذا عملاً سهلاً فى الظلام . وحدث أن اندفعت السمكة بعنف داخل الماء فألقته على وجهه ، وأُصيب بجرح

قاطع تحت عينه ، وسال الدم على خده إلى مسافة قصيرة ، ولكنه تجلَّط وجف قبل أن يصل إلى ذقنه .

مضى العجوز إلى حنية المركب ، واستند إلى ألواحها الخشبية . وأحكم وضع الكيس حول عنقه ، وحرك الحبل إلى مكان جديد من كتفيه ، وما إن فعل ذلك حتى شعر جيداً بالسمكة تجذبه ، ومد يده فى الماء ليدرك مدى تقدم المركب وهو يشق المياه .

وقال متسائلاً :

ـ لماذا جعلت السمكة المركب يتمايل هكذا فى الماء ؟ لا بد أن الحبل قد انزلق عن ظهرها الضخم الذى يشبه التل ، ولكننى واثق من أن ظهرها لا يستشعر الألم الحاد الذى أعانيه فى ظهرى ، بيد أنها لا تستطيع أن تجر المركب إلى الأبد ، مهما بلغت ضخامتها . . والآن تبدد كل شىء قد يثير المتاعب ، ولدىَّ احتياطى هائل من الحبال ، وهذا كل ما يحتاج إليه المرء .

ثم استرسل قائلاً :

ـ أيتها السمكة ، سوف أبقى معك حتى الموت .

وقال لنفسه وهو ينتظر إطلالة الصباح :

ـ أعتقد أنها سوف تمكث معى هى الأخرى بالمثل .

اشتدت البرودة فى الهزيع الأخير من الليل قبيل انبلاج الفجر ، فالتصق العجوز بخشب المركب لعله يحس بشىء من الدفء .

ثم قال :

ـ إن لى جَلَداً وصبراً قَـدْرَ ما لدى هذه السمكة .

ومع انبثاق أول خيط من ضوء الفجر ، كان الحبل ممتدًّا إلى عمق الماء ، والمركب يتحرك بثبات .

وحين بدأت حافة الشمس تبرز ، كان الحبل على الكتف اليمنى للرجل العجوز .

وحدَّث العجوز نفسه قائلاً :

ـ إن السمكة تتجه شمالاً ، أما التيار فإنه يمضى بنا نحو الشرق . . كم أتوق إلى أن تحول اتجاهها لتسبح مع التيار ! إنها فى هذه الحالة يكون قد أصابها الإعياء .

وحين واصلت الشمس ارتفاعها ، أدرك العجوز أن السمكة لم يحل بها التعب بعد .

كانت هناك علامة واحدة واعدة ، فميل الحبل فى الماء كان يشير إلى أن السمكة قد أصبحت تسبح على عمق أقل عن ذى قبل ، إن ذلك لا يعنى على نحو قاطع أنها تزمع أن تقفز ، ولكنها من الجائز أن تفعل ذلك .

وقال العجوز :

ـ ليت الله يدعها تقفز ، إن عندى من الحبال ما يكفى للتعامل معها .

ثم استطرد قائلاً :

ـ إننى إذا استطعت أن أزيد من توتر الحبل قليلاً فسيؤذيها ذلك ، وستقفز إلى أعلى ، ولكن ها هو ذا ضوء النهار يغمر المكان ، وقد يجعلها ذلك تقفز لتملأ مثانتيها الموجودتين على جانبى عمودها الفقرى بالهواء ، ثم لا تستطيع بعدئذ أن تغوص فى أعماق الماء فتموت .

حاول أن يزيد من توتر الحبل ، غير أن الحبل كان مشدوداً إلى أقصاه منذ أن ابتلعت السمكة الخطاف ، وشعر بالألم الناجم من الحبل الخشن وهو يحز فى كتفيه عندما انحنى إلى الخلف ليجذبه ، وأدرك أنه لن يستطيع أن يزيد من توتره ، ويجب ألاَّ يهزه هزًّا عنيفاً ؛ إذ أن كل هزة من شأنها أن توسع الشق الذى أحدثه الخطاف فى حلق السمكة ، فإذا قفزت فلربما تلقى بالخطاف بعيداً عنها وتفلت منها .

وقال العجوز لنفسه :

ـ وعلى أية حال ، فإنى أشعر الآن بتحسن عن ذى قبل مع الشمس المشرقة ، على أنه ينبغى لى ألاَّ أحدق فيها .

كانت هناك بعض الأعشاب والطحالب البحرية عالقة بالحبل ، بيد أن الرجل العجوز كان يدرك أنها تضيف إغراء للحبل وهو على هذه الحال ، واعترته موجة من السرور لدى ذلك الخاطر . إنها أعشاب الخليج وطحالبه البحرية التى ينبعث منها وميض فوسفورى فى الظلام .

وتوجه العجوز بحديثه إلى السمكة :

ـ أيتها السمكة ، إنى أحبك ، وأُكِنُّ لك كثيراً من الاحترام ، ولكننى سأصارعك حتى الموت قبل أن ينتهى هذا اليوم .

ثم قال :

ـ دعونا نأمل ذلك .

أقبل طائر صغير نحو المركب ، وكان قادماً من الشمال . . كان من نوع الهازجة ، وهو طائر مغرد ، وحلَّق على ارتفاع منخفض جدًّا من الماء . وأدرك العجوز أن الطائر قد أخذ منه الأعياء ، وهدَّه التعب .



القسم الثالث

حط الطائر على مؤخرة المركب ، واستراح هناك ، ثم طار محلقاً حول رأس الرجل العجوز ، ثم وقف على الحبل حيث وجد ذلك أكثر راحة له .

قال العجوز للطائر متسائلاً :

ـ كم تبلغ من العمر ؟ . . أَهذه رحلتك الأولى ؟

تطلع الطائر إليه عندما تحدث . كان مُتْعَباً ومرهقاً حتى ليفحص الحبل ويختبره ، وأخذ يتمايل ويترنح فوقه فى حين كانت قدماه الرقيقان تتشبثان به بشدة .

قال له العجوز :

ـ إنه ثابت . . إنه ثابت إلى أقصى حد . . ما كان لك أن تبدو مُنْهَمكاً هكذا فى ليلة كهذه بلا ريح . . لماذا تأتى الطيور إلى هنا ؟

وحدث العجوز نفسه قائلاً :

ـ إن الصقور تفد إلى البحر لتلتقى بمثل تلك الطيور .

بيد أنه لم يقل شيئاً من ذلك للطائر الذى لا يستطيع أن يفهمه بأية حال، والذى سرعان ما سيعرف عن الصقور ما فيه الكفاية .

ثم قال للطائر :

ـ استرِحْ جيداً أيها الطائر الصغير ثم امضِ إلى حال سبيلك ، وخُذْ فرصتك كأى إنسان ، أو طائر أو سمكة .

وشجعه ذلك على الحديث ؛ لأن ظهره كان قد تصلب فى أثناء الليل ، واشتد به الألم الآن .

قال مُحَـدِّثاً الطائر مرة أخرى :

ـ فلتبقَ فى بيتى إذا راقَ لك ذلك .

ثم أردف :

ـ إننى آسف لعدم استطاعتى نشر الشراع لآخذك فيه مع خطرات النسيم هذه ، ولكننى مع صديق .

وفجأة تمايل المركب حين جذبت السمكة الحبل على حين غرة فألقتْ بالعجوز فى حنية المركب ، وكادت تقذف به خارجه لو لم يتساند ويستجمع قواه ، وأرخى للحبل بعض العنان .

انطلق الطائرُ محلقاً فى الهواء حين اهتز الحبل ، ولم يره الرجل العجوز الذى راح يتحسس الحبل بيمناه فى حرص شديد ، ولاحظ أن يده تنزف منها الدماء .

فقال بصوت عالٍ :

ـ إذن فهناك شىء قد آلم السمكة .

وأخذ يجذب الحبل مرة أخرى لعله يقلب السمكة ، وحين بلغ توتر الحبل أشده مضت فى ثبات فى اتجاه مضاد لجذب الحبل .

فعاد يخاطب السمكة :

ـ إذن فإنك تُحِسِّينَ بالألم الآن أيتها السمكة ، ويعلم الله أننى أحس بالألم أيضاً .

وراح الآن يتلفت حوله بحثاً عن الطائر الذى راقت له صحبته ، فلم يجد له أثراً .

وقال العجوز مناجياً الطائر :

ـ إنك لم تُطِلِ الإقامة هنا ، ولكن الإقامة فيما أنت ماضٍ إليه أشد قسوة إلى أن تدرك الشاطىء .

عاد العجوز يحدث نفسه :

ـ كيف تركتُ السمكة تجرحنى هكذا بهذه الجذبة السريعة المفاجئة التى قامت بها ؟ لا بد أننى دخلت فى دائرة الغباء ، أو لعلنى كنت أبحث عن الطائر الصغير وأفكر فيه ، والآن سأنتبه إلى عملى ، ثم ينبغى لى أن آكل التونة حتى لا تخور قواى .

وقال بصوت مرتفع :

ـ وددتُ أن يكون الصبى هنا ، ومَنْ لى ببعض الملح ؟ . .

نقل ثقل الحبل إلى كتفه اليسرى ، وانحنى بحذر فغسل يده فى مياه المحيط ، وأبقى عليها مغمورة فيها لأكثر من دقيقة وهو يراقب الدم يسيل منها ، وحركة الماء المتواصلة فى اتجاه مضاد ليده والمركب تمضى فى طريقها .

ثم قال :

ـ لقد تباطأت السمكة فى سيرها كثيراً .

وود العجوز أن يدع يده فى الماء المالح لمدة أطول ، غير أنه كان يخشى أن تُعاوِدَ السمكة جذب الحبل فجأة ، فاستوى واقفاً على قدميه وعرض يده للشمس . كان جرحاً قطعيًّا من الحبل الذى انغرس فى لحمه ، بيد أن الإصابة كانت فى الجزء من يده الذى يعمل به ، إنه يعرف أنه يحتاج إلى يديه ـ معاً ، إلى أن يتمكن من رفع السمكة من الماء ، وأنه لم يكن يود أن تجرح يده قبل أن يبدأ هذه المهمة .

وحين جفت يده قال :

ـ الآن يجب أن آكل سمكة التونة الصغيرة ، يمكننى أن أجذبها بالرمح ، وأن آكلها هنا فى هدوء .

انحنى إلى أسفل وسحب سمكة التونة من مؤخرة المركب بالرمح ، وجرها نحوه متجنباً لفات الحبال . . وشد الحبل إلى كتفه اليسرى مرة أخرى ، واستند على ذراعه ويده اليسرى ، وانتزع سمكة التونة من الرمح الذى أعاده بعد ذلك إلى مكانه . . وضع إحدى ركبتيه فوق السمكة ، وشرع يقطع شَـرَائحَ طولية من اللحم الأحمر القاتم من السطح العلوى لرأس السمكة حتى ذيلها ، وكانت الشرائح على شكل أوتاد ، ثم أخذ يقطعها بدءاً من العمود الفقرى حتى حافة البطن ، وعندما انتهى من قطع ست شرائح نشرها على الألواح الخشبية لحنية المركب ، ومسح سكينه فى « بنطلونه » ، ثم حمل بقايا جسم السمكة من ذيلها ، وأسقطها فى الماء وهو يقول :

ـ لا أعتقد أننى أستطيع أن آكل سمكة كاملة .

ثم أعمل سكينه فى إحدى الشرائح . . كان يشعر بقوة جذب الحبل

الشديدة الوطأة ، وتقلصت يده اليسرى ، فقد توقفت متصلبة من الحبل الثقيل ، ونظر إليها باشمئزاز .

وقال :

ـ من أى صنف أنت أيتها اليد ، تقلَّصِى إذا شئتِ ، ولتتحولى إلى مخلب، فلن يفيدك هذا بشىء ، ولن تفلتى من العمل .

نظر العجوز إلى المياه القاتمة على امتداد الحبل المائل وقال :

ـ تعـــالى .

ثم قال :

ـ تناول طعامك الآن فإن ذلك سيقوى يدك ، والخطأ ليس خطأ يدك ، فإنك أنت الذى قضيت ساعات عديدة مع السمكة . ويمكنك أن تمكث معها إلى الأبد .

وأردف قائلاً :

ـ كُل التونة الآن .

التقط قطعة منها ، ووضعها فى فمه ، وجعل يلوكها ببطء ، فوجدها ذات مذاق طيب .

وعاود الحديث مع نفسه قائلاً :

ـ امضغها جيداً ، وابتلع كل عصائرها ، ما كان أطيبها إذا تناولتها وعليها قليل من الليمون الحمضى ، أو الليمون العادى ، أو الملح .

ونظر إلى يده المتقلصة التى كانت متصلبة حتى أصبحت قريبة من التيبس الذى يصيب الأجساد عند الموت فقال :

ـ بِمَ تشعرين الآن أيتها اليد ؟ سآكل مزيداً من الطعام من أجلك .

تناول الجزء المتبقى من الشريحة التى كان قد شطرها نصفين ، وجعل يمضغه بعناية ، ثم بصق الجلد الذى كان يغطيه .

وتطلع إلى يده قائلاً :

ـ كيف حالك أيتها اليد ؟ أَمَا آنَ الوقت لكى نعرف ؟

وتناول قطعة أخرى كاملة من سمكة التونة ومضغها .

وقال لنفسه :

ـ إنها سمكة قوية ممتلئة باللحم . كنتُ محظوظاً أن أظفر بها بدلاً من الدلفين ، فلحم الدلفين مفرط فى الحلاوة ، أمَّا هذه فحلاوتها خفيفة جدًّا، ولا تزال فائدتها كامنة فيها .

ـ ومع ذلك ، فلا معنى لأن أكون غير عملىٍّ ، كنت أرجو أن يكون معى بعض الملح ، ولا أدرى إنْ كانت الشمس ستفسد ما تبقى من الشرائح أو تجففها ؛ ولذا فمن الأفضل أن أتناولها كلها ، برغم أننى لست جائعاً.

وأكمل حديثه لنفسه :

ـ إن سمكتى الضخمة هادئة ، وسيرها فى الماء ثابت منتظم ، سآكل جميع الشرائح ، ثم سأكون مستعدًّا .

. وعاد يتفرس فى يده قائلاً :

ـ اصبرى أيتها اليد ، فإننى أصنع ذلك من أجلك .

ثم واصل الحديث مع نفسه :

ـ أود أن أكون متعاطفاً مع السمكة ، فهى أخت لى ، ولكن لا بد من قتلها ، وأن أحتفظ بقواىَ لأتمكن من القيام بهذه المهمة .

تناول العجوز كل الشرائح الوتدية الشكل ببطء وفقاً لما أملاه عليه عقله .

شد العجوز قامته ماسحاً يده فى « بنطلونه » .

ثم وجه حديثه إلى يده قائلاً :

ـ أيتها اليد . . تستطيعين الآن أن تتركى الحبل ، وستمسك يمناى به وحدها حتى تتوقفى عن هذا الهراء ، وذلك السلوك الأحمق .

وضع قدمه اليسرى على الحبل الثقيل الذى كانت يده اليسرى ممسكة به ، وألقى بظهره إلى الوراء فى اتجاه مضاد لقوة الشد ، وقال :

ـ أعاننى الله ليخلصنى من تقلص يدى ؛ لأننى لا أعرف ما تنوى السمكة أن تفعله ، ولكنها تبدو هادئة وتسير وفق خطتها .

ثم تساءل :

ـ أمَّا أنا فما هى خطتى ؟ يجب أن أرتجلها ، وأن تفوق خطتها ؛ لأنها سمكة بالغة الضخامة ، إذا قفزت فسيكون فى إمكانى أن أصرعها ، ولكنها باقية فى الأعماق ، وحينئذ سأظل باقياً معها .

وانثنى العجوز إلى بنطلونه يحك فيه يده المتقلصة ، وحاول أن يلين أصابعه ، ولكنها أبت أن تنفرج .

وجال بخاطره أن الشمس ستجعلها تنفرج ، أو لعل ذلك سيحدث بعد أن يهضم لحم التونة النىء القوى .

ثم قال :

ـ وإذا جَـدَّ الجد ، فسأفتح يدى مهما كبدنى ذلك من ثمن ، غير أننى لا أود أن أبسطها الآن بالقوة ، إننى سأدعها تنفتح بنفسها طوعاً بدون إكراه، وفى الواقع أننى ظلمتها وأسأت معاملتها وتعسفت معها كثيراً فى الليل ، حين اضطررت إلى فك وحل تلك الحبال .

تطلع العجوز عبر البحر فأدرك مدى ما فيه من وحدة الآن ، ولكنه كان يستطيع أن يرى المنشورات الضوئية المنعكسة فى المياه القاتمة العميقة ، والحبل الممتد فى الطليعة ، والذى يمضى قدماً إلى الأمام ، والتموجات الغريبة للماء وسط الطبيعة الهادئة الساكنة .

وكانت السحب تتجمع فى ذلك الوقت إيذاناً ببدء هبوب الرياح التجارية .

نظر العجوز أمامه فشاهد سرباً من البط البرى فوق الماء يشق طريقه نحو السماء ، ثم يصبح ضبابيًّا ، ويعاود شق طريقه مرة أخرى فى أجواز الفضاء .

إنه لم يعرف إنساناً عانى مثل تلك الوحدة فى البحر .

وتذكر كيف أن بعض الرجال كانوا يخشون أن يغيبوا عن مدى البصر من الشاطىء فى مركب صغيره ، وهم يعلمون أنهم فى أشْهُرٍ يكثر فيها مفاجآت سوء الجو . وهو الآن وسط أشهر الأعاصير المصحوبة بالأمطار والرعود وومضات البرق .

ولكن عندما تخلو تلك الأشهر من الأعاصير ، فإن الطقس فى أثنائها يكون أفضل من كل أشهر العام .

وقال العجوز فى نفسه :

ـ إذا كان هناك إعصار على وشك الحدوث فإن المرء إذا كان فى البحر فإنه يرى دائماً علاماته بادية فى السماء لبضعة أيام ، والناس لا ترى ذلك عند الشاطىء ؛ لأنهم لا يستطيعون عندئذٍ معرفة ما يتطلعون إليه ، كما أن الأرض أيضاً تغير فى شكل السحب ، ولكن ليس هناك إعصار قادم الآن .

وتطلَّعَ إلى السماء ، فشاهَدَ أكداساً من السحب الدائرية ذات القواعد المسطحة التى توقع فى النفس شعوراً بالرضا والابتهاج . ورأى ريشاً رفيعاً فى سُحب رقيقة شبيهة بالصوف على ارتفاع شاهق فى السماء .

وقال :

ـ ما أرَقَّ هذا النسيم !

ثم أكمل حديثه إلى نفسه قائلاً :

ـ طقس أنسبُ لى منك أيتها السمكة .

كانت يده اليسرى مازالت متقلصة ، فحاول أن يفكها على مهل قائلاً :

ـ إننى أكره التقلص ، إنه خيانة آتية من ذات جسم المرء .

إنه شىءٌ مُـذِلٌ مُخْـزٍ أمام الآخرين أن يُصاب المرء بالإسهال نتيجة التسمم « البتومينى » الناشىء من تناول الأطعمة المعلبة الفاسدة ، أو يتقيأ بسببه ، ولكن تقلص العضلات ، باعتباره تشنُّجاً فيها يذل الإنسان ، خاصة إذا كان وحيداً .

واستطرد قائلاً :

ـ لو كان الصبى هنا لاستطاع أن يُدلك ساعدى حتى تنفرج يدى ، ولكنها لا ريب ستنبسط .

وشعرت يده اليمنى بفارق فى درجة انجذاب الحبل قبل أن يشاهد تغير ميله فى الماء .

عندئذ انحنى فى اتجاه معاكس لجذب الحبل ، وضرب بيده اليسرى على فخذه بقوة وسرعة ، فرأى الحبل يصعد رويداً رويداً .

قال العجوز :

ـ ها هى ذى السمكة صاعدة .

ثم قال متوسلاً :

ـ هيا يا يدى ، أرجو أن تنبسطى .

صعد الحبل إلى أعلى ببطء وثبات ، وبرز ماء البحر على شكل انتفاخ خارج المركب ، وظهرت السمكة وكأن طولها لا نهاية له ، وتدفق الماء عن جانبيها .

كانت تلمع وهى تعكس أشعة الشمس الساقطة عليها ، وظهر رأسها وظهرها بلون أرجوانى قاتم ، وكانت مخططة بخطوط عريضة ذات لون أرجوانى شاحب ، وبدت مقدمة رأسها طويلة أشبه بمضرب « البيسبول » وقد استدق طرفه كسيفٍ ذى حَدَّيْن . ورفعت السمكة قامتها من الماء بطولها الكامل ، ثم عادت إلى الماء برفق كالغواص .

شاهد العجوز ذيلها الضخم كحد المنجل يتدلى فى الماء ، والحبل يهبط فى أثره .

وقال العجوز :

ـ إنها أطول من مركبى بقدمين .

كان يرخى الحبل بسرعة وانتظام فى الماء ، ولم تكن السمكة مذعورة .

وها هو ذا يحاول بكلتا يديه أن يترك الحبل لها إلى أبعد مدى ، فهو يعرف أنه إذ لم يستطع أن يحد من سرعتها عن طريق جذبها بانتظام ، فإن مثل تلك السمكة قادرة على أن تمضى بالحبل كله وتقطعه فى النهاية .

وقال لنفسه هامساً :

ـ إنها سمكة ضخمة ، ويجب أن أقنعها كى تعود ، وينبغى ألاَّ أدعها تعلم مدى قوتها ، وماذا تستطيع أن تفعله إذا مضت فى طريقها مسرعة ؟ لو كنت مكانها لتركت كل شىء الآن ، وأمضى قُدماً حتى ينقطع شىء ، ولكن حمداً لله أن الأسماك ليس لها ذكاؤنا نحن الذين نصرعها ، مع أنها أكثر منا نُبلاً وقُدرة .

شاهد العجوز كثيراً من الأسماك الضخمة التى تزن الواحدة منها أكثر من ألف رطل ، وقد ظفر فى حياته باثنتين من ذلك الحجم ، ولكنه لم يكن بمفرده قط .

وها هو ذا الآن مازال وحيداً وبعيداً عن مدى الرؤية من الشاطىء .

كانت تلك السمكة أسرعَ من أكبر سمكة رآها ، وأضخم من أى سمكة سمع عنها .

مازالت يد العجوز اليسرى متقلصة كأنها مخلب منقبض لأحد النسور .

استأنف العجوز حديثه إلى نفسه قائلاً :

ـ ومع ذلك ستنبسط يدى المتقلصة . . لا شك أنها ستنبسط لتساعد يدى اليمنى . . هناك ثلاثة أشقاء : السمكة ويَدَاى . يجب أن يزول هذا التقلص .

تباطأت السمكة فى سيرها مرة أخرى ، وعادت إلى سرعتها العادية .

وقال متسائلاً :

ـ إننى لأتعجب لماذا قفزت السمكة إذن إلى السطح ؟ يبدو أنها قفزت كما لو كانت تُرينى مدى ضخامة حجمها . وإننى أعرف الآن الطريقة التى تفكر بها ، وأنا بدورى أريد أن أُريها أى نوع من الرجال أنا ، ولكنها قد تشاهد يدى المتقلصة ، فلأدعها تعتقد أننى رجل أقوى مما أنا عليه ، وسأكون ذلك الرجل .

وقال لنفسه :

ـ ليتنى كنت أنا تلك السمكة بكل مواصفاتها وقدراتها وهى تواجه بها عزيمتى وذكائى لا غير .

استند إلى خشب المركب ليستريح ، ووطَّن نفسه على احتمال معاناته التى يخوضها .

سبحت السمكة بانتظام وثبات ، وتحرك المركب معها وئيداً فى المياه القاتمة ، وهبت الريح من الشرق فارتفعت مياه البحر ارتفاعاً ضئيلاً .

وعند قدوم الظهر انفرجت يد العجوز فقال :

ـ أنباء سيئة لك أيتها السمكة .

وغَيَّـرَ موضع الحبل فوق الأكياس التى تغطى كتفيه .

كان نشيطاً ، ولكنه كان يعانى ، غير أنه لا يسمح للآلام على الإطلاق أن تنال منه .

وحدث نفسه قائلاً :

ـ لستُ رجلَ دينٍ تقيًّا وَرِعاً ، ولكننى أبتهل كثيراً إلى الله وإلى جميع القديسين والقديسات أن أظفر بتلك السمكة .

وشرع يردد صلواته بطريقة آلية ، من أجل موت هذه السمكة برغم غرابتها .

وأحس بالراحة بعد ترديد صلواته . ولو أن آلامه بقيت على حالها أو اشتدت قليلاً ، وانحنى مستنداً إلى الألواح الخشبية لحنية الزورق ، وبدأ يحرك أصابع يده اليسرى بطريقة آلية .

اشتد قيظ الشمس برغم انتشار الرياح اللينة ، وقطرات النسيم الرقيقة .

وقال فى نفسه :

ـ من الأوفق أن أعيد وضع الطعم فى الحبل الصغير الباقى عند مؤخر المركب ، حتى إذا ما عزمت السمكة أن تمكث فى الماء ليلة أخرى وجدتُ ما أتبلَّغ به ، إذ يلزم أن أتناول طعامى مرة أخرى ، أمَّا الماء فلم يبق منه فى القارورة سوى القليل . . لا أعتقد أننى مستطيعٌ أن أظفر هنا بأكثر من دلفين، و إذا تناولته طازجاً فلا غبار على ذلك ، وأود أن تسقط سمكة طائرة على سطح المركب هذه الليلة ، ولكن يعوزنى ضوء أجتذبها به . . إن

السمكة الطائرة تكون شهية إذا تناوَلها المرءُ نيئة ، ولا حاجة بى إلى تقطيعها ، ويجب أن أدخر كل قواى الآن . . يالله لم أكن أعرف أن تلك السمكة بهذه الضخامة !

ومع ذلك فسأقتلها برغم عظمتها وغرورها وتباهيها .

ثم قال :

ـ ولو أن هذا ليس من العدل ، ولكننى سأريها ماذا يستطيع الرجل أن يفعل ، ومدى قوة احتماله .

وسكت هنيهة ، ثم أضاف قائلاً :

ـ لقد أخبرتُ الصبى أننى رجل عجوز عجيب ، والآن قد آن الأوان لإثبات ذلك .

إن العجوز قد أثبت ذلك آلاف المرات من قبل ، وها هو ذا الآن يقوم بإثبات ذلك مرة أخرى . وكانت كل مرة تعتبر جديدة . ولم يحدث قط أن فكر فى الماضى فى أثناء خوضه ذلك النضال الجديد .

وقال لنفسه :

ـ كم أود أن تنام هذه السمكة حتى أنام أنا الآخر ، وأحلم بالأُسُود . . لماذا كانت السباع هى الشىء الرئيسى المتبقى فى ذاكرتى ؟

واستطرد قائلاً :

ـ كفاك تفكيراً أيها الرجل العجوز . . استرح قليلاً مستنداً إلى ألواح المركب الخشبية ، ولا تفكر فى شىء . . إن السمكة تعمل ، أمَّا أنتْ فلا تعمل إلا قليلاً ، وبأقل جهد .

بدأ وقت الأصيل ، وما زال المركب يتحرك على مهل وبانتظام ، غير أنه كانت هناك الآن سُحُب كثيرة آتية مع النسيم القادم من الشرق . . وزاد الألم الناجم عن حز الحبال فى ظهره .

وذات مرة فى هذا الأصيل بدأ الحبل يرتفع مرة أخرى ، ولكن السمكة استمرت تسبح فى مستوى يعلو قليلاً عما كانت فيه .

تركزت أشعة الشمس على ذراع العجوز اليسرى وكتفه ، وفوق ظهره ، فأدرك أن السمكة غيرت اتجاهها إلى الشمال الشرقى .

ولما كان قد أتيح له أن يرى السمكة فى إحدى المرات ، فهو يستطيع أن يتصورها وهى تسبح فى الماء بزعنفتيها اللتين نُشِرَتا على اتساعهما كما لو كانتا جناحين ، فى حين كان ذيلها الضخم يشق طريقه فى الظلام .

وفكر العجوز قائلاً :

ـ إنى أتساءل عن مدى استطاعتها أن ترى عند هذا المستوى من العمق داخل الماء ، إن عينها كبيرة ، ويمكن للحصان بعينه الصغرى من عينها أن يرى فى الظلام ، وكنت فيما مضى أرى جيداً فى الظلام كما ترى القطة ، ولكن ليس فى الظلام الدامس .

كانت الشمس ، وتحريكه المستمر لأصابعه قد بسطا يده اليسرى، الآن انفرجت انفراجاً كاملاً ، وبدأ توترها يخف ، وهز عضلات ظهره لينقل الألم الذى يحدثه الحبل المشدود فوقها إلى موقع آخر قريب من المكان السابق.

وصاح الرجل العجوز :

ـ إذا لم يكن التعب قد حلَّ بكِ أيتها السمكة فلا شك أنك من أغرب العجائب .

كان الرجل لا يكاد قده يستقيم من التعب، وأدرك الآن أن الليل لن يلبث أن يخيم على المكان ، وحاول أن يفكر فى أشياء أخرى .

جعل العجوز يفكر فى مباريات الدورى النهائية ، وكان اهتمامه مركزاً فى الناديين الكبيرين ، فهو يعلم أن فريق « يانكى نيويورك » ينازل « نمور ديترويت » .

وقال لنفسه :

ـ هذا هو اليوم الثانى ، الآن تظهر نتائج « اللعب » . ولكننى يجب أن أضع ثقتى فى « ديمادجو » العظيم ، ولا بد أن أكون جديراً به . . ذلك الذى يؤدى كل شىء على أكمل وجه حتى إذا اشتد الألم على عظمة كعبه .

ثم تساءل :

ـ ترى ما هو ألم عظمة الكعب ؟

وقال :

ـ مهماز العظم . . إننا لم نصب به . . أتراه يؤلم فى كعب المرء ألم الديكة عندما تتصارع ؟ لا أعتقد أننى أستطيع احتمال ذلك ، أو أن أفقد عيناً أو عينين كما تفعل الديكة التى تُفْقَأ عيونها وهى تُنازِل بعضها بعضا، ومع ذلك تواصل المعركة . إن الإنسان لا يساوى كثيراً بجانب الطيور الجارحة والحيوانات المتوحشة ، ومع ذلك كنت أوثر أن أكون ذلك الحيوان الموجود تحت سطح البحر فى عمق الظلام .

وتحدث الرجل بصوت عال :

ـ ما لم تقبل أسماك القرش ، أمَّـا إذا قَدِمَتْ فليرحم الله هذه السمكة ، وليرحمنى أنا أيضاً .

ثم سأل نفسه :

ـ أتعتقد أن « ديمادجو » العظيم كان يستطيع أن يمكث مع سمكة كما أمكث أنا مع تلك السمكة ؟ إننى متأكد أنه يستطيع أن يصمد معها أكثر منى ، إذ أنه شاب فتىّ وقوى ، كما أن أباه كان صياداً . . ولكن هل تؤلمه عظمة كعبه كثيراً ؟

وصاح قائلاً :

ـ إننى لا أعرف ؛ إذ لم أُصَبْ قط بألمٍ فى عظمة الكعب .

وحين غربت الشمس ، تذكَّرَ ما يعطيه مزيداً من الثقة ، فها هو ذا قد استعاد فى ذهنه أيام الحانة فى « كاسا بلانكا » عندما تبارى فى لعبة اليد الحديدية مع الزنجى العظيم من « ثينفويجوس » والذى كان أقوى عمال الرصيف الذين يشتغلون بتحميل السفن أو تفريغها ، وقد أمضيا نهاراً كاملاً وليلة بطولها وكُوع كل منهما على خط مرسوم بالطباشير فوق المنضدة ، فى حين كان ساعداهما قائمين إلى أعلى ، وقد اشتدت قبضتا يديهما كُل على الأخرى . واستماتت كلٌّ منهما مُحاوِلاً ثَنْىَ ساعد الآخر على المنضدة .

كثرت المراهنات عليهما ، وجعل الناس يدخلون ويخرجون داخل الحجرة التى يشع فيها ضوء مصباح الكيروسين ، ونظر « سانتياجو » إلى ذراع ويد الزنجى ، وتفرس فى وجهه .

وكان الحكام يتغيرون كل أربع ساعات بعد مضى الساعات الثمانى الأولى ، حتى يستطيع كل منهم أن ينال قسطاً من النوم .

طفر الدم من تحت أظافر كل منهما ، وحملق كل منهما فى عينى الآخر ، وتطلع إلى يدى وساعد منافسه .

وظل المتراهنون عليهما يغدون ويروحون داخل الحجرة ، ويجلسون على مقاعد عالية مستندة إلى الحائط وهم يرقبون الصراع الدائر .

كانت الجدران مصنوعة من الخشب المطلى باللون الأزرق اللامع ، وألقت المصابيح بظلى المتبارين عليها . كان خيال الزنجى ضخماً ، وراح يتحرك على الحائط كلما هزت الريح ذبالات المصابيح ، وراحت كفة كل منهما تتغير إقبالاً وإدباراً طوال الليل ، وكان الناس يسقون الزنجى كئوس الروم (نوع من الخمر) ويشعلون له لفائف التبغ .

وبعد أن احتسى الزنجى الروم ، اشتد ساعده ، وحاول بذل جهد خارق للتغلب على منافسه .

وكاد يظفر مرة بالعجوز ، الذى لم يكن قد تقدمت سنه بعد ، بل كان يُدعى « سانتياجو إل كامبيون » (وتعنى بالإسبانية سانتاياجو البطل) ، وتمكن من ثنى ساعده نحو ثلاث درجات . غير أن « سانتياجو » استمات حتى استطاع أن يعيد ساعده إلى استقامته الأولى ، وامتلأ ثقة حينئذ بأنه سيفوز على الزنجى الذى كان بطلاً رياضيًّا عظيماً ورائعاً .

وعندما أطل ضوء النهار أراد المتراهنون أن يعتبروا المباراة قد أسفرت عن تعادلهما ، فى حين هز الحَكَم رأسه ، فاستجمع « سانتياجو » قواه ، وأجبر

ساعد الزنجى على الهبوط رويداً رويداً حتى استقرت على خشب المنضدة .

كانت المباراة قد بدأت صباح يوم من أيام الآحاد ، وانتهت صباح يوم الاثنين . وطالب كثير من المتراهنين باعتبار أن المتباريين قد تعادلا ؛ لأنه كان عليهم أن يتوجهوا إلى أعمالهم على الأرصفة حيث يحملون أكياس السكر، أو إلى شركة « هافانا » للفحم الحجرى ، ولولا ذلك لود كل واحد منهم أن يبقى ، وأن تستمر المباراة حتى النهاية .

بيد أن « سانتياجو » قد أنهاها على أية حال ، وقبل أن يشرع أى من العمال فى التوجه إلى عمله .

وظل كل شخص عقب ذلك يناديه بالبطل على مدى من الوقت طويل .

وأُقيمت مباراة إعادة بينهما فى الربيع ، ولكن لم تُدفع أموال كثيرة فى الرهان عليهما ، وفاز « سانتياجو » فى تلك المباراة فى سهولة ويسر ؛ إذ أنه أفقد زنجى « شينفويجوس » ثقته بنفسه فى المباراة الأولى .

لم يلعب « سانتياجو » سوى القليل من المباريات ، وتوقف عن ذلك تماماً؛ إذ أدرك أنه يستطيع أن يهزم أى منافس ، ولكن على حساب الإضرار بيده اليمنى التى يعتمد عليها فى الصيد .

وكان قد حاول أن يمارس بعض مباريات تدريبية بيده اليسرى ، ولكنها خانته ولم تحقق المنشود منها ، ولم يعد يثق بها .

وقال فى نفسه :

ـ إن الشمس ستدفئها جيداً الآن ، ولن تتقلص مرة أخرى إلا إذا اشتد البرد فى أثناء الليل .

وقال متسائلاً :

ـ لست أدرى ماذا تجىء به هذه الليلة .

ومرقت فوق رأس العجوز إحدى الطائرات فى طريقها إلى « ميامى » ، وشاهد ظلها يحدث ذعراً بين أسراب الأسماك الطائرة .

نظر العجوز نحو تلك الأسراب قائلاً :

ـ مع تلك الأسماك الطائرة الكثيرة لا بد أن يكون هناك دلفين .

وانثنى فوق الحبل ليرى إن كانت هناك فرصة سانحة للظفر بسمكته ، ولكنه لم يفز بطائل ، وظلت على صلابتها ، وارتجافها الذى يسبق محاولتها للهرب .

مضى المركب يمضى قدماً على مهل ، فى حين كان العجوز يرقب الطائرة حتى غابت عن ناظريه .

قال محدثاً نفسه :

ـ لا بد أن ركوب الطائرة أمر مثير . وإنى لأتساءل كيف يكون منظر البحر من هذا الارتفاع ؟ لا شك أن فى استطاعة راكبيها أن يشاهدوا السمك بوضوح إذا لم يطيروا على ارتفاع شاهق . . أتمنى أن أمتطى متن طائرة تحلق ببطء على ارتفاع ألف ومائتى قدم ، وأشاهد الأسماك من حالق . كنت أصعد إلى أعلى الصارى حين عملت مع سفن صيد السلاحف ، ورأيت الكثير من ذلك الارتفاع . كان الدلفين من موقعى هذا يبدو أكثر

خضرة ، ويمكنك أن ترى خطوطه وبقعه الأرجوانية ، وفى استطاعتك أن تشاهد كل أسراب الدلافين وهى تسبح فى البحر .

ثم قال :

ـ لماذا تتميز جميع الأسماك السريعة التى تقيم فى التيارات القائمة بظهورها الأرجوانية ، وبخطوطها أو بقعها الأرجوانية عادة ؟ ومن الطبيعى أن الدلفين يبدو أخضر لأنه ذهبى اللون فى الواقع ، ولكنه حينما يلم به الجوع الشديد وينشد الطعام تظهر خطوط أرجوانية على جانبيه مثل الموجودة على سمكة « المرلين » ، ترى أيكون ذلك بسبب الغضب ، أم أنها تظهر عندما يُسرع فى سيره ؟

وقبيل حلول الظلام مر المركب بجزيرة كبيرة من طحالب السرخس البحرية ، كانت تعلو وتنخفض وتتماوج فى المياه .

وعَلِقَ أحدُ الدلافين بخطاف حبله الصغير ، وكان العجوز قد رأى ذلك الدلفين من قبل حين قفز فى الهواء ، وهو يرف ويلمع كقطعة من الذهب الخالص مع الأشعة الأخيرة التى كانت ترسلها الشمس قبيل غروبها . وراح يتلوى ويثب بعنف فى الهواء ، وأخذ يقفز ويقفز فى حركات أكروباتية خوفاً وهلعاً .

مضى العجوز إلى مؤخرة المركب ، وانحنى ممسكاً بالحبل الكبير بيده اليمنى ، وجذب الحبل المعلق به الدلفين بيده اليسرى وهو يضغط عليه فى كل مرة بقدمه اليسرى العارية .

وحين أصبح الدلفين قريباً من مؤخرة المركب وهو يحاول الغوص مندفعاً

داخل الماء ، ويتخبط من جانب إلى جانب إلى آخر فى يأس ـ انحنى العجوز ورفع الدلفين بِبُقَعِه الأرجوانية إلى المؤخرة .

كان الدلفين يعض الخطاف عضات سريعة ، وفكَّاه يتحركان فى تشنج وهو يقرع قاع المركب بجسمه الطويل المنبسط وذيله ورأسه ، وظل العجوز يضربه بهراوة على رأسه الذهبية اللامعة حتى ارتعش وسكنت حركته بعد أن زحف إليه الموت ، فخلصه العجوز من الخطاف ، وأعاد وضع طعم جديد بالحبل ، إذ أدخل الخطاف فى سردينة ، وطوح بالحبل الصغير فى الماء .

رجع العجوز ببطء إلى حنية المركب ، وغسل يده اليسرى ومسحها فى «بنطلونه» ، ثم نقل الحبل الثقيل من يده اليمنى إلى اليسرى ، وغسل يمناه فى البحر وهو يرقب الشمس وهى تغرب مختفية فى الأفق البعيد وراء المحيط .

وتطلع إلى الحبل الكبير المائل فى الماء ثم قال :

ـ إن السمكة لم تغير رأيها قط .

ولكنه لاحظ من حركة الماء ضد يده أنه يتحرك ببطء محسوس ، فقال :

ـ سأربط المجذافين معاً فى مؤخرة المركب ، وهذا سيقلل من سرعة السمكة فى الليل ، وهذا حسن مع الليل ومعى .

ثم همس لنفسه :

ـ من الأفضل أن أؤجل شق بطن الدلفين وإخراج أحشائه لفترة قصيرة لأحتفظ بدمه داخل لحمه .

مضت برهة ثم أردف :

ـ سأربط المجذافين بعد قليل لأقيم عائقاً يبطىء من حركة السمكة ، ويحسن أن أدع السمكة هادئة الآن ، ولا أسبب لها مزيداً من الإزعاج فى أثناء غروب الشمس ، وهو وقت عصيب بالنسبة لجميع أنواع الأسماك .

جعل العجوز يده تجف فى الهواء ، ثم أمسك الحبل بها واسترخى قدر استطاعته ، وترك العنان لنفسه لينجذب أماماً ، تجاه الألواح الخشبية ، حتى يحكم شد المركب ويزيد مقاومتها أكثر مما فعل .

وقال فى نفسه :

ـ إننى أتعلم كيف أقوم بذلك ، ولتتذكر أيضاً أن السمكة لم تأكل شيئاً منذ أن أطبقت على الطعم ، وهى ضخمة وتحتاج إلى طعام وفير . لقد أكلتُ كل سمكة التونة ، وغداً سآكل الدلفين .

أطلق العجوز على الدلفين اسم « دورادو » (وتعنى الذهبى باللغة الإسبانية) .

ثم قال :

ـ قد آكلُ بعضاً منه عندما أقوم بتنظيفه . سيكون أصعب من التونة فى المضغ ، ولكن ليس هناك شىء سهل .

وصاح متسائلاً :

ـ كيف حالك أيتها السمكة ؟

وأضاف :

ـ إننى بخير ، وقد تحسنت يدى اليسرى ، ولدَىَّ من الطعام ما يكفينى ليلة وما يعقبها من نهار . اسحبى المركب ما شئتِ أيتها السمكة .

لم يكن فى الحقيقة يشعر بأنه فى حالة طيبة ؛ لأن الألم فى ظهره ـ الذى يسببه الحبل المشدود إليه ـ أصبح مبرحاً ، وتطرَّقَ إليه الملل حتى كاد يفقده الثقة بنفسه .

وأردف قائلاً :

ـ لقد مر بى ما هو أسوأ من ذلك بكثير ، لقد جُرحت يدى جرحاً طفيفاً، وزال التقلص من اليد الأخرى ، وساقاى بخير ، وفزت على السمكة فى مجال التغذية .

سينتشر الظلام الآن . . إذ سرعان ما يهبط الظلام بعد غروب الشمس خلال شهر سبتمبر .

استلقى العجوز على الأخشاب البالية عند حنية المركب ، واستراح بقدر استطاعته ، وطلعت النجوم الأولى فى السماء .

لم يكن يعرف اسم « رجل الجوزاء اليسرى » ولكنه رآها فعرف أنها جميعاً ستذهب بعيداً وتختفى ، وأنه لن يلبث أن يجد أصدقاءه البعيدين .

وصاح قائلاً :

ـ إن السمكة صديقتى أيضاً ، لم أر أو أسمع قط بمثل تلك السمكة ، ولكن لا بد لى من أن أقتلها .

ثم شعر بالأسى من أجل السمكة الضخمة التى ليس لديها ما تقتات به ، غير أن عزمه على قتلها لم يفتر قط برغم حزنه عليها .

ثم همس لنفسه :

ـ كم من الناس ستطعمهم تلك السمكة ، ولكن هل هم جديرون

بأكلها ؟ كلا . . طبعاً كلا . لا يوجد من هو أهل لتناول لحمها لما أبدته من سلوك رائع ، ووقار ونُبل وسمو .

واستأنف حديثه لنفسه :

ـ يجب أن أفكر الآن فى عملية إعاقة سحب المركب . إن لها مخاطرها ومنافعها . سأرخى العنان للحبل ليمتد بعيداً ، وقد أفقد السمكة إذا بذلت جهدها كى تفلت ، وكذلك يفقد المركب كل خفته بسبب وضع المجذافين مربوطين بالمؤخرة . إن خفة المركب تطيل معاناتى أنا والسمكة ، ولكنها ضمان لسلامتى ؛ إذ أن سرعة السمكة كبيرة ولم تستغلها قط حتى الآن . أما عن الدلفين فيجب علىّ أن أشق بطنه وأُخرج أحشاءه حتى لا يفسد ، وأتناول بعضاً منه لأكون قويًّا .

وأكمل حديثه لنفسه قائلاً :

ـ الآن سأستريح ساعة أخرى ، وأرى إنْ كانت لا تزال صامدة ومستمرة فى سيرها بانتظام قبل أن أمضى إلى مؤخرة المركب لأنجز المهمة التى قر عزمى عليها ، وفى نفس الوقت يمكننى أن أرى كيف تتصرف السمكة ، وعمّا إذا كانت هناك أية تغييرات تبدو منها ، إن طريقة المجذافين حيلة طيبة، ولكننى بلغت الوقت الذى أعمل فيه على سلامتى . إنها ما زالت صامدة ، وقد رأيت الخطاف فى ركن من فمها ، وأنها أحكمت إغلاقه . إن آلام الخطاف لا شىء بالنسبة لآلام الجوع ، ومواجهتها لشىء لا تفهمه .

ثم همس لنفسه :

ـ استرح الآن أيها العجوز ، ودع السمكة تعمل حتى يحين ما يجب عليك أن تؤديه فى الخطوة التالية .

لقد استراح فترة اعتقد العجوز أنها ساعتان . ولم يظهر القمر الآن ؛ لأنه لا يلوح فى الأفق إلا متأخراً ، ولم تكن لديه وسيلة لتقدير الوقت ، ولم تكن راحته حقيقية بل هى مسألة نسبية ، وكان لا يزال يتحمل جذب السمكة للحبل المشدود إلى كتفيه .

اتكأ بيده اليسرى على الحافة العليا من جانب حنية المركب ، وركز اهتمامه على مقاومة السمكة أكثر من اهتمامه بالمركب نفسه .

ثم فكر قائلاً :

ـ قد يكون الأمر سهلاً لو استطعت أن أجعل الحبل ثابتاً ، ولكن السمكة يمكنها أن تقطعه وتفلت منه بهزة صغيرة منها . لا بد أن أجعل جسدى وسادة للحبل الذى يجذب المركب ، وأن أكون مستعدًّا فى كل الأوقات لإرخاء العنان له بكلتا يدىّ .

وصاح مُذكراً نفسه :

ـ ولكنك لم تنم حتى الآن ، أيها العجوز . إنك لم تنم طوال يوم وليلة ، والآن يوم آخر ، فيجب عليك أن تدبر طريقة لتنام قليلاً إذا استمرت السمكة هادئة وتسير بثبات وانتظام ، إنك إذا لم تنم فقد يفقد عقلك حدته ومضاءه .

ثم قال :

ـ إنى أتمتع بذهن صافٍ تمام الصفاء . إننى واضح كالنجوم ، ومع ذلك لا بد أن أنام ، إن النجوم تنام ، وكذلك القمر والشمس ينامان ، وحتى المحيط ينام أحياناً فى أيام معينة ، حينما لا يكون هناك تيار ، وتهدأ صفحته فتبدو مسطحة منبسطة .

مضت برهة ثم أردف بغتة :

ـ تذكر أن تنام . ولتجعل نفسك تقدم على ذلك ، وابتكر طريقة بسيطة ومؤكدة بخصوص الحبال . والآن عُد فجهز الدلفين ، ومن الخطر أن تعد المجاذيف كعائق إذا كان لا بد لك أن تنام .

واستطرد قائلاً :

ـ إننى أستطيع أن أبقى بلا نوم ، ولكن ذلك خطير أيضاً .

بدأ يزحف إلى الخلف على يديه وركبتيه وهو يتجنب هز السمكة هزًّا عنيفاً .

ثم همس لنفسه :

ـ قد تكون هى نفسها نصف نائمة ، ولكننى لا أريد لها أن تستريح ، يجب أن تستمر فى سحب المركب حتى تموت .

واستدار عند مؤخرة المركب جاعلاً يده اليسرى تقاوم توتر الحبل المحكم الشد حول كتفيه . واستل سكينه من غمدها بيده اليمنى .

كانت النجوم متألقة ، فرأى الدلفين بوضوح ، دفع نصل سكينه فى رأسه ، وجذبه من أسفل مؤخرة المركب ، ووضع إحدى قدميه على الدلفين، وبحركة سريعة شق بطنه حتى طرف فكه الأسفل . ثم ألقى بالسكين جانباً . وأخرج أحشاءه بيده اليمنى ، ونظف جوفه ، وانتزع خياشيمه ، وشعر بمعدته ثقيلة تكاد تنزلق من يده ، وفتحها فوجد بداخلها سمكتين من نوع الأسماك الطائرة ، وكانتا طازجتين محتفظتين بصلابتهما ، فوضع إحداهما بجانب الأخرى ، وطوح بأحشاء الدلفين وخياشيمه فى الماء ، فغاصت تاركة وراءها وميضاً فوسفوريًّا .

كان الدلفين بارداً ، وأصبح لونه الآن أبيض حرشفيًا فى ضوء النجوم ، وسلخه العجوز من أحد جانبيه ، وكان يضغط بقدمه اليمنى فوق رأس الدلفين ، ثم قلبه وسلخ الجانب الآخر ، وفصل الجلد فى كلا الجانبين من الرأس حتى الذيل ، وقذف به إلى البحر ، ونظر إلى الماء ليرى إن كان يدور كالدوامة ، ولكن لم يكن هناك سوى الضوء الذى صاحَب الجلد وهو يهبط ببطء فى الماء ، ثم استدار ووضع السمكتين الطائرتين داخل شريحتى الدلفين ، وأعاد سكينه إلى غمدها ، وزحف ببطء إلى حنية المركب .

تقوس ظهر العجوز من ثقل الحبل المشدود حوله ، وحمل شريحتى الدلفين فى يده اليمنى .

وضع الشريحتين وبداخلهما السمكتان الطائرتان بجانبه على الخشب عند حنية المركب ، ثم نقل موضع الحبل المشدود إلى كتفيه إلى مكان جديد ، وأمسك به مرة أخرى بيده اليسرى التى أسندها فوق الحافة العليا من جانب المركب .

انحنى بعد ذلك فوق هذا الجانب ، وغسل السمكتين الطائرتين وهو يلاحظ سرعة المياه وهى تصطدم بيده التى اكتسبت وميضاً فوسفوريًا بعد سلخه لجلد الدلفين ، كان جريان الماء قد قلت قوة اندفاعه ، وحين حك يده فى ألواح المركب الخشبية طفت حبيبات متفسفرة وانجرفت ببطء خلف مؤخرة المركب .

ولم يلبث أن قال فى نفسه :

ـ إن السمكة قد أدركها التعب أو لعلها تستريح .

وأردف :

ـ لأَشْـرَعَ الآن فى أكْلِ لحم هذا الدلفين ثم آخُذ قسطاً من الراحة ، وأنام قليلاً .

أكل العجوز نصف شريحة من الدلفين فى ضوء النجوم ، واستمر البرد شديداً بالليل ، ثم تناول سمكة طائرة ، وأخرج أحشاءها ، وقطع رأسها ، والتهمها عقب ذلك .

وهمس لنفسه :

ـ ما أشهى تناول لحم الدلفين مطهيًّا ، وما أسوأ أكله نيئاً . . لن أذهب فى مركب أو قارب مرة أخرى بدون ملح أو ليمون حمضى .

ثم قال :

ـ لو كنت شخصاً شديد الذكاء لألقيتُ رشاشاً من ماء البحر فوق حنية المركب طوال النهار ، حتى إذا جف تحول إلى ملح ، بيد أن الدلفين لم يعلق بالخطاف إلا بعد أن أوشكت الشمس على الغروب ، وعلى أية حال فقد كان يعوزنى الاستعداد ، ولكننى مضغته جيداً بدون أن أُصاب بالغثيان .

انعقدت السحب فى السماء صوب الشرق ، وراحت النجوم التى يعرفها تختفى واحدة و راء الأخرى .

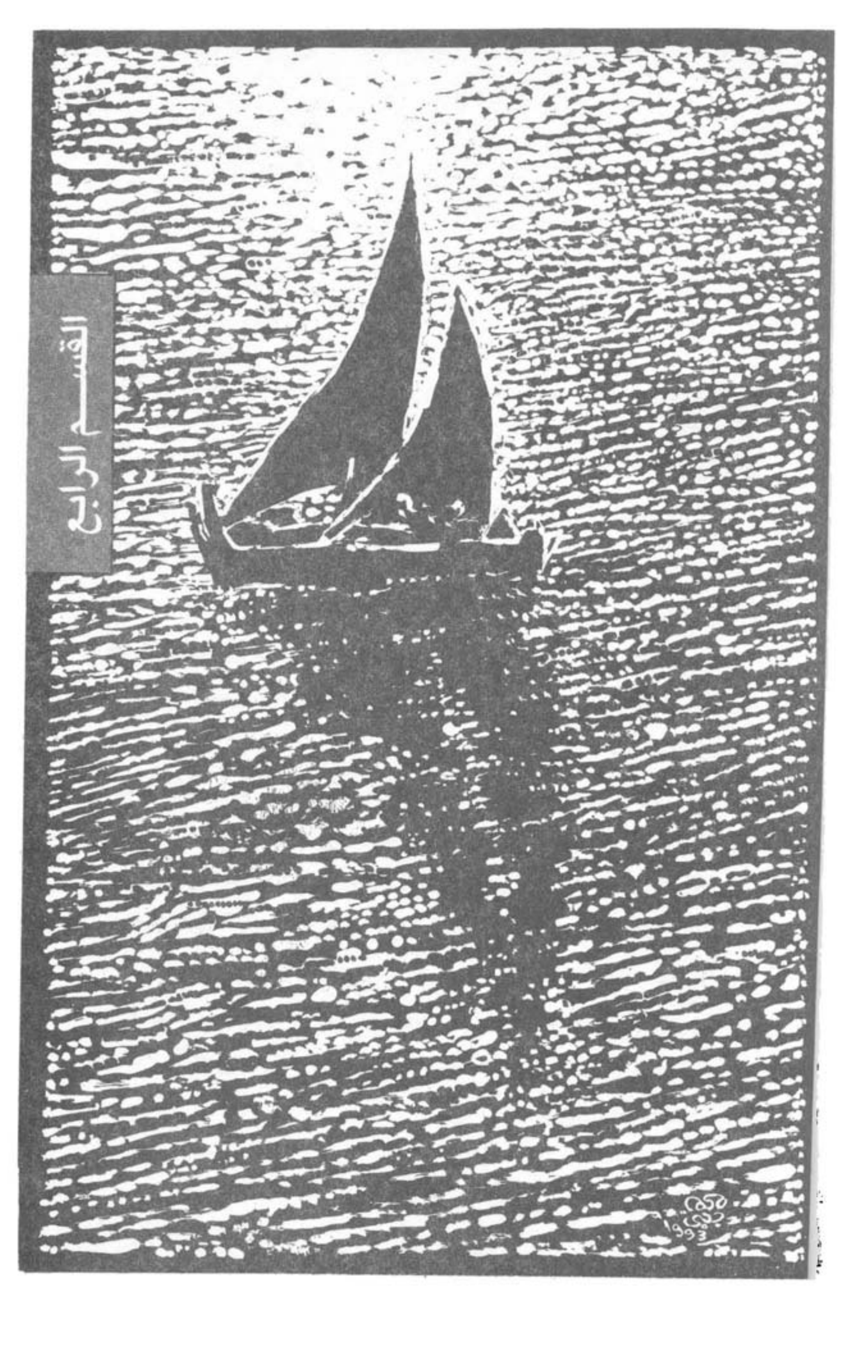
وبدا له كأنه يتحرك فى وادٍ ضيق من السحب منحدر الجنبات ، يجرى فى أدناه جدول . وسكنت الرياح ، فقال فى نفسه :

ـ سوف يسوء الطقس فى مدى ثلاثة أو أربعة أيام ، ولكن ليس اليوم ولا الغد . . تهيأ الآن لتظفرِ بشىء من النوم أيها الرجل العجوز فى الوقت الذى أخلدت فيه السمكة إلى الهدوء ، والتزمت السير بانتظام .

أمسك الحبل بيده اليمنى بإحكام ، ودفع بفخذه فوقها ، وانحنى بكل جسمه ملتصقاً بحنية المركب الخشبية .

حرك الحبل المشدود إلى كتفيه ، مسافة قليلة إلى أسفل ، وأسند يده اليسرى فوقه ضاغطاً بها بقوة عليه ، وقال فى نفسه :

- إن يدى اليمنى تستطيع أن تظل ممسكة بالحبل طالما كان مشدوداً ، فإذا استرخى فى أثناء نومى فإن يدى اليسرى ستوقظنى فى هذه الحالة . إن يمناى تقبض بقوة وصلابة على الحبل ، ولكن السمكة قد تعودت على المعاملة القاسية ، وحتى إذا نمت عشرين دقيقة أو نصف ساعة فما أطيب ذلك!



القسم الرابع

رقــد العجوز مكوماً نفسه على الحبل بكل جسده ، ملقياً كل ثقله على يده اليمنى ، وراح فى النوم .

لم يحلم بالأسود ، بل رأى بدلاً منها سرباً من الدلافين امتد إلى ثمانية أو عشرة أميال ، وأخذت الدلافين تقفز عالياً فى الهواء ، ويعود كل منها إلى الحفرة التى شقها فى الماء عندما وثب .

ثم رأى فيما يرى النائم بأنه فى القرية راقدٌ فى فراشه ، وقد هبت الريح الشمالية فأحس بالبرد القارس ، وشعر بِخَـدَرٍ فى ذراعه اليمنى التى اتخذ منها وسادة لرأسه .

ولم يلبث أن شرع يحلم بالشاطىء الأصفر الطويل ، ورأى أول الأسود مُقبلاً نحو الشاطىء فى بداية الليل ، ثم جاءت السباع الأخرى ، وقد أسند ذقنه إلى أخشاب حنية المركب الذى كان يقف حيث ألقى مراسيه فى المساء بعيداً عن اليابسة فى سهولة ويسـر ، وجعل ينتظر ليرى إن كان هناك مزيد من الأسود ، وقد غمرته السعادة .

ظل القمر طويلاً وسط السماء ، ولكن الرجل العجوز كان مستغرقاً فى النوم ، فى حين كانت السمكة تجر المركب بثبات ، ومضى المركب فكأنه يتحرك داخل نفق من السحب .

استيقظ العجوز عندما اهتزت قبضة يده اليمنى هزة عنيفة ، وارتفعت حتى لطمت وجهه ، وكان الحبل يُؤلمها ألماً شديداً .

لم يكن يشعر بيده اليسرى شيئاً ، ولكنه جذب الحبل بيده اليمنى بكل ما استطاع من قوة ، فأفلت الحبل من قبضتها ، وأخيراً عثرت يده اليسرى على الحبل .

انحنى العجوز إلى الخلف وهو يجذب الحبل الذى ألهب الآن ظهره ويده اليسرى ، وكانت يسراه قد تحملت كل العبء الناجم عن الحبل المتوتر المشدود وهو يحز فيها حزًّا مؤلماً . ونظر إلى لفَّات الحبال فوجدها فى حالة جيدة .

وفى تلك اللحظة قفزت السمكة قفزة هائلة فانطلقت خارجة من المحيط، ثم سقطت بعنف ، وعاودت القفز المرة تلو المرة ، ومضى المركب فى طريقه بسرعة برغم أن الحبل كان فى سباق مضاد ، والعجوز يشدد من قوة جذب الحبل إلى أقصى مداه مراراً وتكراراً ، ولم يلبث أن انكفأ على وجهه فوق الشريحة الباقية من الدلفين عند حنية المركب ، ولم يستطع حراكاً .

همس العجوز لنفسه :

ـ هذا ما كنا ننتظره ، إذن فلنواجهه الآن ، وسأجعل السمكة تدفع الثمن . . فلتدفع الثمن .

لم ير العجوز وَثَبَات السمكة ، ولكنه سمع الصوت الذى تُحدثه وهى تشق طريقها منطلقة من المحيط ، وشعر بما يبعثه سقوطها فى الماء من رشاش ثقيل ، وكانت سرعة الحبل تحز فى يديه بقسوة ، ولكنه كان يعرف تمام المعرفة أن ذلك أمر قد يحدث ، وحاول أن يجعل الحبل يحز فى الأجزاء

المتصلبة من يده ، وألاَّ يدعه يزحف إلى راحة يده أو يؤذى أصابعه .

وشرع يقول متحسراً :

ـ لو كان الصبى هنا لَبَلَّل لفات الحبال . . أجل لو كان الصبى هنا !

وجعل الحبل يمضى ويمضى مبتعداً عنه ، ولكن سرعته تتناقص ، واستمر يرخى العنان للسمكة بوصة بوصة ، ورفع رأسه الآن عن حنية المركب خارج شريحة الدلفين التى عصرها خده وسحقها .

نهض العجوز راكعاً على ركبتيه ثم استوى ببطء واقفاً على قدميه ، وأخذ يتخلى عن الحبل رويداً رويداً فى بطء ، وعاد إلى حيث يستطيع أن يستشعر بقدمه لفات الحبال التى لم يعد يراها فى الظلام .

كان هناك مقدار وافر من الحبل ما زال موجوداً ، وعلى السمكة الآن أن تجذب كل ذلك الحبل الطويل خلال الماء .

وحدث نفسه قائلاً :

ـ نعم ، لقد قفزت الآن أكثر من اثنتى عشرة مرة ، وملأت مثانتيها الهوائيتين عند ظهرها بالهواء ، ولن تستطيع أن تهبط إلى الأعماق لتموت هناك ، فلا أستطيع أن أرفعها ، إنها سرعان ما ستبدأ فى الدوران ، وينبغى لى إذن أن أتعامل معها ، غير أن ما يدهشنى هو ما الذى أثارها فجأة ؟ أكان الجوع هو الذى أوصلها إلى حافة اليأس ، أم أن شيئاً آخر قد أثار رعبها فى الليل ؟ لعلها شعرت فجأة بالخوف ، ولكنها كانت سمكة هادئة قوية ، وبدت جسورة شجاعة لا تعرف الخوف ، وكلها ثقة بنفسها ، فياله من أمر عجيب !

خاطب الرجل نفسه قائلاً :

ـ من الأفضل لكَ أن تكون مقداماً لا يتطرق الخوف إلى قلبك ، وأن تثق بنفسك ، وها أنت ذا تمسك بها مرة أخرى ، ولكنك لا يمكنك أن تأتى بمزيد من الحبال ، غير أن السمكة لن تلبث أن تدور فى حركة دائرية .

أمسك الرجل العجوز بالحبل المشدود إلى كتفيه بيده اليسرى ، وانحنى مطأطئاً رأسه ، واغترف الماء بيده اليمنى ليزيل آثار لحم الدلفين المهروس من وجهه ، كان يخشى أن تثير غثيانه ويتقيأ فيفقد قوته . وعندما انتهى من تنظيف وجهه أدلى يده اليمنى من فوق جانب المركب ، وغسلها فى الماء ، وتركها فى المياه المالحة فى حين كان يرقب الخيط الأول من الفجر قبيل شروق الشمس .

ولم يلبث أن قال لنفسه :

ـ إن السمكة تتجه غالباً إلى الشرق ، وهذا يعنى أن التعب قد لحق بها فسبحت مع التيار ، وستحوم بسرعة ، وعندئذ تبدأ مهمتنا الحقيقية .

وحين أدرك أن يده اليمنى قد مكثت فى الماء مدة كافية ، أخرجها وتمعن فيها ، ثم قال :

ـ لا بأس ، إن احتمال الآلام من شِيَمِ الرجال .

وأمسك بالحبل فى عناية واهتمام محَاذراً أن يرخى مزيداً من العنان للحبال الاحتياطية ، ورفع نفسه حتى يتمكن من أن يمد يده اليسرى فى البحر من فوق الجانب الآخر للمركب .

ووجه حديثه ليده اليسرى قائلاً :

ـ إنكِ لم تتألمى من أجل شىء لا يستحق ذلك ، غير أنه قد قابلتنى لحظة لم أجدك فيها .

ثم راح يفكر قائلاً :

ـ لماذا لم أُولد بيدين لهما قوة واحدة ، ربما كانت غلطتى أننى لم أدرب تلك اليد جيداً . ولكن يعلم الله أنه قد أتيحت لها فرص كافية كى تتعلم ، وكانت لا بأس بها فى الليل ، ولو أن عضلاتها قد تقلصت ذات مرة ، وليت الحبل يقطعها إذا تقلصت مرة أخرى .

وحين مر بخاطره أنِ ذهنه لم يعد صافياً ، فكر فى أنه ينبغى له أن يمضغ مزيداً من لحم الدلفين .

غير أنه قال لنفسه :

ـ إننى لا أستطيع . من الخير أن تظل طائشاً مصاباً بالدوار من أن تفقد قوتك نتيجة إصابتك بالغثيان ، وإنى أعرف منذ أن كان وجهى ملتصقاً بشريحة الدلفين ، أننى لا أستطيع الاحتفاظ بها إذا أكلتها ، غير أننى سأحتفظ بها تحسباً للطوارىء إلى أن يتطرق إليها الفساد ، ولكنِ الآن قد سبق السيف العذل لمحاولة أن أنشد القوة عن طريق التغذية .

وهمس لنفسه :

ـ أنت غبى ! كُل السمكة الطائرة الثانية .

وكانت هناك نظيفة مُعَدَّة للأكل .

التقطها العجوز بيده اليسرى ، وأكلها ماضغاً عظامها بعناية ، وتناولها بأجمعها حتى ذيلها .

وقال :

ـ إنها مغذية أكثر من أية سمكة أخرى ، وفيها على الأقل نوع التقوية الذى أحتاج إليه .

ثم أردف :

ـ هأنذا قد فعلتُ ما فى وسعى ، فلتبدأ السمكة تدور ، ومرحباً بالعراك والقتال .

كانت الشمس تشرق للمرة الثالثة منذ نزوله إلى البحر ، وهنا بدأت السمكة تحوم .

لم يستطع أن يرى انحراف الحبل ليدرك أن السمكة كانت تدور ، حدث ذلك مبكراً جدًّا ، وبأسرع وقت ليلحظ ذلك ، وإنما أحس تراخياً طفيفاً فى ضغط الحبل ، فبدأ يجذبه بيده اليمنى فى رفق ، ودَاوَم على ذلك .

توتر الحبل فى يده كالعادة ، وحين وصل توتره إلى أقصى مداه بدأ فى جذب الحبل إلى أعلى ، وهنا انزلق العجوز بكتفيه ورأسه من تحت الحبل ، وشرع يجذبه بثبات ورفق . واستخدم كلتا يديه وراح يؤرجحهما ، وحاول قدر استطاعته أن يلقى بعبء الجذب على جسده وساقيه ، وقامت ساقاه العجوزان وكتفاه بدور أساسى فى حركة الجذب المتأرجحة .

قال العجوز :

ـ يا لها من دائرة كبيرة ! ولكنها تحوم وتدور .

ثم توقف عن جذب الحبل إلى أعلى ، إلى أن رأى قطرات الماء تقفز منه

فى ضوء الشمس ، فركع العجوز ، وأرخى له العنان متذمراً لينساب فى الماء القاتم .

وهمس قائلاً :

ـ إنها الآن تمضى إلى أقصى محيط الدائرة .

ثم قال :

ـ ينبغى أن أمسك الحبل بكل قواى ، حيث إن توتره يضيق من محيط دائرته فى كل مرة ، وربما أراها فى مدى ساعة ، والآن يجب أن أقنعها ، ثم لا بد أن أقتلها .

ولكن السمكة واصلت الدوران ببطء ، وتصبب العرق من العجوز بغزارة ، ونال منه التعب حتى النخاع طوال ساعتين أخريين . غير أن الدوائر قد زادت ضيقاً الآن ، وعرف العجوز من الطريقة التى مال بها الحبل أن السمكة قد ارتفعت بثبات وانتظام فى أثناء سباحتها فى الماء .

وظل العجوز طوال ساعة يرى بقعاً سوداء أمام عينيه اللتين تملحتا من العرق ، وتملح منه أيضاً الجرح القطعى الذى سبق أن أُصيب به أعلى عينه ، وكذلك مَلَّح العرقُ جبهته .

لم يكن يخشى تلك البقع السوداء ، كان ذلك أمراً طبيعيًّا بسبب توتر أعصابه وهو يجذب الحبل ، غير أنه شعر بالإغماء ، وأصيب بدوار مرتين ، وقد أقلقه ذلك وأزعجه . وقال فى نفسه :

ـ محال أن أضعف ويصيبنى الوهن وأخفق وأموت أمام سمكة كهذه ، وهى الآن ساعية نحوى سعياً جميلاً ، فليساعدنى الله على أن أحتمل .

وشعر فى تلك اللحظة بحركة مفاجئة ، ووثبة قوية فى الحبل الذى كان ممسكاً به بكلتا يديه ، وكان الحبل حادًّا قاسياً ثقيلاً .

وقال :

ـ إن السمكة تضرب السلك ، الذى يقود السمك إلى الشَّـرَك ، بخطمها الطويل الرمحى الشكل ، كان ذلك لا بد أن يحدث ، ولو أن هذا قد يحملها على أن تثب إلى سطح البحر ، وإن كنت أوثر أن تبقى دائرة الآن. إن القفز ضرورى لها لتحصل على الهواء ، غير أن كل وثبة تقوم بها تعمل على توسيع فتحة الجرح الذى أحدثه الخطاف ، ويمكنها بذلك أن تلقى بالخطاف وتتخلص منه .

وصاح قائلاً :

ـ لا تقفزى أيتها السمكة ، لا تقفزى .

ضربت السمكة السلك عدة مرات ، وفى كل مرة تهز فيها السمكة رأسها كان العجوز يرخى لها الحبل قليلاً .

وقال لنفسه :

ـ يجب أن أخفف من ألمها ، أما آلامى فلا تهم ، ففى استطاعتى أن أسيطر عليها ، أما آلام السمكة فقد تدفعها إلى الجنون .

وبعد برهة توقفت السمكة عن ضرب السلك وشرعت فى الدوران ببطء مرة أخرى .

أخذ العجوز يجذب الحبل الآن فى ثبات ، ولكنه شعر بأنه على وشك الإغماء مرة أخرى ، اغترف بعضَ ماءِ البحر بيده اليسرى وسكبه فوق رأسه ، وعاوَدَ فِعْل ذلك بكمية أكثر من الماء ، ومسح قفاه .

وقال :

ـ لا تقلصات بى الآن ، وسرعان ما ستصعد السمكة ، وفى استطاعتى أن أصمد ، يجب أن تصمد ولا تستمر فى الحديث عن ذلك .

ركع الرجل فى حنية المركب ، وفى لحظة جعل الحبل ينزلق فوق ظهره مرة أخرى .

وقال فى عزم :

ـ سأستريح الآن والسمكة مُستمرة فى سيرها الدائرى ، ثم أنهض واقفاً ، وأتعامل معها عندما تصعد .

شعر الرجل بإغراء كبير ليخلد إلى الراحة فى حنية المركب ، تاركاً السمكة تتم دورة واحدة بدون أن يسترد شيئاً من الحبل .

غير أنه عندما استدل من توتر الحبل على أن السمكة قد استدارت لتصعد صوب المركب ، نهض العجوز مستوياً على قدميه ، وبدأ يهتز ويتأرجح وهو يجذب الحبل حتى استعاد كل ما سبق أن أرخاه منه .

وحدث نفسه قائلاً :

ـ إننى فى أشد حالات التعب والإعياء الذى لم أعانِ مثله من قبل ! والآن ها هى ذى الرياح التجارية تهب ، ولكن ما أبدع ذلك ! إنها ستجرف السمكة معها ، إننى فى حاجة إلى ذلك على نحو مُلِحٍّ إلى أبعد حد .

وقال :

ـ سأستريح خلال الدورة التالية للسمكة عندما تمضى فى حركتها

المستديرة ، إننى أشعر الآن بتحسن ، وسأظفر بها بعد أن تقوم بدورتين أو ثلاث دورات أخرى .

كانت قبعته المصنوعة من القش منحدرة عند مؤخرة رأسه ، وقبع الرجل فى حنية المركب ، ومضى يجذب الحبل حين أحس بالسمكة تدور .

وقال موجهاً حديثه إلى السمكة :

ـ إنك تعملين الآن أيتها السمكة . وسأستحوذ عليكِ عندما تستديرين .

ارتفع ماء البحر إلى حد كبير ، وكان النسيم يهب وسط طقس معتدل ، وكان ذلك يعوزه ليعود به إلى البر .

ثم قال :

ـ سأدير دفة المركب تجاه الجنوب الغربى . إن الإنسان لا يُفقد أبداً فى البحر ، والجزيرة طويلة .

وفى الدورة الثالثة كانت السمكة أول ما وقع بصره عليها .

ورآها فى أول الأمر كظل قاتم استغرق وقتاً طويلاً ليمر من تحت المركب ، حتى إنه لم يكن يصدق أن تبلغ السمكة مثل ذلك الطول .

وقال :

ـ كلا . . لا يمكن أن تكون بتلك الضخامة .

ولكنها كانت كذلك، وعندما انتهت من دورتها ، طفت على سطح البحر على مسافة ثلاثين ياردة فقط من المركب ، وشاهد الرجل ذيلها يبرز

من الماء ، وكان أكثر ارتفاعاً من نصل منجل كبير بلون أرجوانى شاحب فوق المياه الزرقاء الداكنة .

ثم انحدر الذيل ، وحين سبحت السمكة تحت سطح الماء مباشرة تمكن العجوز من رؤية جسمها الضخم ، والخطوط الأرجوانية التى تطوقه .

كانت زعنفتها الظهرية منكسة ، فى حين كانت زعنفتاها الصدريتان الضخمتان منبسطتين على مدى واسع من الاتساع .

واستطاع الرجل العجوز فى هذه الدورة أن يرى عين السمكة ، والسمكتين المصاصتين الرماديتين اللتين كانتا تسبحان حول السمكة الضخمة ، وتلتصقان بها تارة ، وتتركانها تارة أخرى مندفعتين بعيداً عنها كالسهم . وفى أحيان أخرى كانتا تسبحان فى ظلها بدون أن تشعرا بقلق أو ارتباك .

كان طول كل من السمكتين المصاصتين يزيد على ثلاث أقدام . وحين كانتا تسبحان بسرعة فإنهما تندفعان فى هذه الحالة بعنف مثل ثعابين الماء .

وها هو ذا الرجل العجوز ينضح منه العرق بسبب الشمس وغيرها ، فمع كل دورة كانت تقوم بها السمكة فى هدوء ورباطة جأش كان الرجل يسترد جزءاً من الحبل ، وكان واثقاً من أنه بعد دورتين أُخْـرَيَيْنِ للسمكة ، سيجد فرصة ليطعنها بالرمح .

وقال لنفسه :

ـ ولكن يجب أن أجعلها تقترب وتقترب وتقترب ، وينبغى أن أحاول طعنها فى رأسها ، بل يجب أن أصيبها فى القلب .

وأردف لنفسه :

ـ كن هادئاً وقويًّا أيها الرجل العجوز .

وفى الدورة التالية برز ظهر السمكة خارج الماء ، ولكنها كانت بعيدة قليلاً عن المركب .

وفى الدورة التى تلت بعد ذلك كانت السمكة ما زالت بعيدة ، غير أن ارتفاعها فوق سطح الماء قد زاد .

وأصبح الرجل العجوز على يقين من أنه إذا استرد مزيداً من الحبل استطاع أن يجعلها بجانب المركب .

وكان قد أعد رمحه منذ وقت طويل ، وكانت لفة الحبل الخفيفة المثبتة بالرمح موضوعة فى سلة مستديرة ، فى حين أن طرفها كان معقوداً بإحكام بمربط الحبال . . ذلك العمود المعدنى عند الحنية الذى تشد إليه الحبال .

قَدِمَت السمكة الآن فى دورتها هذه نحو المركب هادئة جميلة المنظر ، وكان ذيلها الضخم هو الذى يتحرك .

جذب الرجل العجوز الحبل ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى يزداد قُربها منه .

استدارت السمكة قليلاً حتى أصبحت بجانبه لحظة ثم اعتدلت ، وبدأت دورة أخرى .

وقال الرجل العجوز :

ـ لقد حركتها . . لقد حركتها إذن .

وشعر بالإغماء يعاوده الآن ، ولكنه جذب السمكة الضخمة بكل ما تبقى من قواه .

وعاد يقول :

ـ لقد حركتها ، وربما استطعت أن أظفر بها هذه المرة .

ثم قال :

ـ أجذبا يا يَدَىَّ ، واشتدَّا يا ساقَىَّ . وَاثْبَتْ يا رأسى من أجلى . . اثبت من أجلى ولا تنهر أبداً . فى هذه المرة سأظفر بها .

وحينما بدأ يستجمع كل قواه قبل أن تجىء السمكة فى محاذاة المركب ، جذب الحبل بكل قوته ، ولكن السمكة استدارت واعتدلت وسبحت مبتعدة .

صاح العجوز :

ـ أيتها السمكة ، أيتها السمكة ، إنك ستموتين على أية حال ، فهل تقتلينني معك أيضاً ؟

ثم حدث نفسه :

ـ لا شىء يمكن أن يتم هكذا .

وكان ريقه قد جف حتى أصبح لا يقوى على الكلام ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يصل إلى زجاجة الماء .

وقال العجوز :

ـ يجب أن اجتذب السمكة نحوى هذه المرة ، إننى لم أعد احتمل مزيداً من دوراتها .

ثم قال :

ـ أجل . . إنك . . إنك مازلت قادرةً على الصمود !

وكاد يظفر بالسمكة فى الدورة التالية ، ولكنها عادت واعتدلت مرة أخرى ، وراحت تسبح ببطء مبتعدة عنه ، فحدثها قائلاً :

ـ إنك تقتليننى أيتها السمكة ، ولكن ذلك من حقك ، إننى لم أر قط سمكة أضخم ولا أجمل ولا أهدأ ولا أنبل منك أيتها الأخت ، تقدَّمِى واقتلينى ، فلستُ أبالى بمَنْ يقتل من .

وهمس لنفسه :

ـ إن ذهنك مشوش الآن ، ويجب أن تحتفظ بعقلك صافياً . احتفظْ بِحِدَّتِه ومضائه ، وتعلَّمْ كيف تحتمل الآلام كرجل ، بل حتى كالأسماك .

وقال بصوت لا يكاد يسمعه :

ـ اصْفُ يا عقلى . . اصفُ . .

وتكرر نفس دوران السمكة مرتين أُخْـرَيَيْنِ .

فأعمل العجوز فكره قائلاً :

ـ لست أعلم لِمَ تفعل هذا ؟ . يبدو أنها تريد أن تذهب بعيداً . . إننى لا أعلم ، غير أننى سأحاول مرة أخرى .

كرر الرجل المحاولة مرة أخرى ، وأدار السمكة ، ولكنها اعتدلت وسبحت على مهل مبتعدة كما تفعل فى كل مرة ، وكان ذيلها الضخم يتماوج فى الهواء .

وأصر العجوز على إعادة المحاولة مرة أخرى ، برغم أن يديه كانتا الآن قد كَلَّتَا ، ولم يعد يستطيع أن يرى إلا لماماً .

أعاد المحاولة وحدث نفس الشيء .

وأحس واعتقد أنه ينهار قبل أن يبدأ ، ولكنه قال :

ـ سأحاول مرة أخرى .

تحمل كل آلامه ، واستجمع كل ما بقى له من قوة ، وكل كبريائه التى اعتدَّ بها طويلاً ، ووضعها فى مواجهة السمكة التى تغالب آلامها .

اقتربت السمكة ، وسبحت برفق إلى جانب المركب ، وكادت مقدمة رأسها أن تلمس ألواح المركب الخشبية ، وبدأت تتجاوزها طويلة ، غامضة، عريضة ، فضية ، مخططة بخطوط أرجوانية ، وبدت فى الماء كما لو كانت لا آخر لها .

ألقى العجوز بالحبل ، وضغط عليه بقدمه ، ورفع الرمح عالياً قدر استطاعته ، وطعن بكل قواه ، وبكل قوته التى استجمعها منذ هنيهة ، فنفذ الرمح فى جنب السمكة خلف الزعنفة الصدرية الكبيرة التى ارتفعت عالياً فى الهواء إلى مستوى ارتفاع صدر الرجل . وأحس بحديد الرمح يخترق جسدها ، فانحنى فوقه دافعاً إياه بكل ثقله ليتوغل داخل لحمها .

ولكن السمكة التى تحمل الموت داخلها ، ظلت حية ، وارتفعت خارج الماء كما لو كانت تستعرض طولها وعرضها الكبيرين ، وكل بما تملكه من قوة وجمال .

وبدت كأنها معلقة فى الهواء فوق الرجل العجوز فى المركب ، ثم سقطت

فى الماء محدثة ضجة عالية ، وانبعث رذاذ ماء البحر فوق العجوز والمركب كله .

شعر الرجل العجوز بالدوار ، وأحس بالسأم ، ولم يعد يرى جيداً ، لكنه أطلق العنان لحبل الرمح ، وجعله ينسحب ببطء من بين يديه المتسلختين . وحين استطاع أن يرى ، شَاهَـدَ السمكة مستلقية على ظهرها ، وبطنها الفضى إلى أعلى .

كانت قصبة الرمح بارزة بزاوية من كتف السمكة ، واستحال لون ماء البحر إلى لون الدم الأحمر الذى سال من قلبها . كان الدم فى أول الأمر قاتماً كلون قطيع من الأسماك فى الماء الأزرق الذى تجاوز عمقه الميل ، ثم انتشر الدم كأنه سحابة .

كانت السمكة الفضية اللون ساكنة طافية مع الأمواج .

ألقى الرجل العجوز نظرة خاطفة بالبقية الباقية من الإبصار فى عينيه ، وأمسك بلفتين من حبل الرمح المثبت فى مربط الحبال عند حنية المركب ، واعتمد رأسه بين يديه وقال :

ـ احتفظ بعقلك كاملاً .

ثم قال وهو قبالة ألواح الحنية الخشبية المقوسة :

ـ إننى رجل هدته السنون والأعوام . ولكننى قتلت هذه السمكة . . إنها أختى . . وينبغى أن أقوم الآن بعمل مُضْنٍ .

يجب أن أقوم الآن بإعداد الأنشوطات والحبل لربطها . وحتى لو كنا اثنين ورفعناها لنضعها داخل هذا المركب لما وسعها .

ينبغى أن أعد كل شىء ، وأسحبها نحو المركب ، وأربطها جيداً ، وأثبت الصارى بسناد ، وأبحر إلى موطنى .

بدأ يجذب السمكة لتقترب بحذاء المركب ، حتى يمكنه أن يمرر حبلاً من خلال خياشيمها ، ويخرجه من فمها ، ويشد رأسها على طول حنية المركب .

وقال :

ـ أريد أن أراها ، وألمسها ، وأتحسسها . . إنها ثروتى . . ولكن ليس ذلك هو السبب الذى أريد من أجله أن أفعل ذلك .

وهمس لنفسه :

ـ أظن أننى أحسست بقلبها عندما دفعت فيه بقصبة الرمح فى المرة الثانية، فلأجذبنَّها الآن إلى هنا لأربطها ، ولأضع الأنشوطة حول ذيلها وأعقدها فوقه ، وأخرى حول وسطها لأربطها فى المركب .

ثم قال محدثاً نفسه :

ـ هيا إلى العمل أيها العجوز .

وشرب قليلاً من الماء ، وأكمل حديثه قائلاً :

ـ هناك الآن كثير من العمل المضنى برغم انتهاء النزال والقتال .

تطلع إلى أعلى نحو السماء ثم إلى سمكته ، ونظر إلى الشمس بحذر وقال :

ـ إن الوقت لم يتجاوز الظهيرة ، والرياح التجارية تهب ، وأردف :

ـ إن الحبال كلها لا تعنى شيئاً الآن ، وسوف نصلها معاً بجذْل أطرافها أنا والصبى عندما أعود إلى البيت .

ونادى السمكة قائلاً :

ـ تعَالَىْ أيتها السمكة .

ولكن السمكة لم تأتِ ، بل كانت ترقد هناك ، وتتخبط فى البحار ، وجذب الرجل العجوز المركب نحوها .

وحتى عندما كان مع السمكة ـ وهو يرى رأسها مشدوداً على طول حنية المركب ـ لم يصدق أنها بذلك الحجم الضخم .

فك حبل الرمح من مربط الحبال وأنفذه من خياشيم السمكة ، وأخرجه من بين فكيها ولفه حول مقدمة رأسها الطويلة كالسيف ، ثم أنفذ الحبل خلال الخيشوم الآخر ، وعقد لفة أخرى حول مقدمة رأسها ، وعقد الحبل المزدوج وثبته بإحكام فى مربط الحبال عند حنية المركب . ثم قطع الحبل ، واستدار إلى الخلف ليعقد أنشوطة حول الذيل .

وتحولُ لون السمكة إلى اللون الفضى بعد أن كان فى الأصل مزيجاً من اللونين الأرجوانى والفضى ، وبدت خطوطها بلون بنفسجى باهت كلون ذيلها ، وكانت أعرض من يد رجل فتح أصابعها على اتساعها .

أما عين السمكة فبدت كمرايا البريسكوب (منظار الأفق المستخدم فى الغواصات) أو كقديس فى أحد المواكب .

وقال الرجل العجوز :

ـ كانت هذه هى الطريقة الوحيدة لقتلها . . إنها الآن تستشعر حالة

أفضل مما كانت عليه وهى فى الماء ، وقد أدركت أنها لن تفلت ، وكانت ذكية .

ثم قال :

ـ إن وزنها يزيد على ألف وخمسمائة رطل ، وقد تكون أزيد من ذلك ، فإذا وصل وزنها بعد إعدادها للبيع إلى الثلثين وكان سعر الرطل منها ثلاثين سنتاً فكم تدر علىّ من أرباح ؟

وأردف قائلاً :

ـ إننى أحتاج إلى قلم لحساب ذلك ، إن ذهنى لم يعد صافياً ، ولكننى أعتقد أن ديماجو العظيم سيكون اليوم فخوراً بى . إننى لا أحس وخزاً فى عظامى ، ولكنّ يدىَّ وظهرى يؤلماننى حقًّا ، وإنى لأتساءل ما هو وخز العظام؟ قد نكون مصابين به بدون أن ندرى .

أحكم العجوز شد السمكة إلى حنية المركب ومؤخرتها ومقعد المُجَدِّف الكائن فى الوسط .

كانت السمكة ضخمة إلى الحد الذى بدا فيه المركب كأنه يجر بحذائه مركباً أضخم منه بكثير .

وقطع جزءاً من الحبل ، وأوثق به الفك الأسفل للسمكة ، وشده إلى مقدمة رأسها حتى لا ينفتح فمها ، ثم ثبت الصارى بسنادة ، وباستخدام ذراع التطويل أطال قاعدة الشراع ، وبمعاونة العصا ذات الخطاف فك الحبال التى حول الشراع فانبسط ، وبدأ المركب يتحرك ، واستلقى العجوز عند المؤخرة نصف استلقاء ، وأبحر نحو الجنوب الغربى .

لم يكن بحاجة إلى بوصلة لترشده إلى اتجاه الجنوب الغربى ، كان يحتاج فقط إلى الإحساس بالرياح التجارية ، وانتفاخ الشراع .

وقال لنفسه :

ـ يجدر بى أن ألقى بحبل صغير فى البحر بعد أن أزوده بطعم معدنى لماع مِلْعَقِيّ الشكل لعلنى اصطاد به شيئاً أمسك به رمقى ، وأشرب بعض الماء أرطب به حلقى .

ولكنه لم يجد طُعماً معدنيًا ، وكان ما لديه من السردين قد تطرق إليه الفساد ، فحصل على بعض أعشاب الخليج الصفراء التى علقت بخطاف عصاه حينها كانت تسير طافية ، وهزها فسقط منها عدد من « الجمبرى » الصغير على أرضية المركب ، كان هناك أكثر من اثنتى عشرة ، وجعلت تتواثب وتقاوم ضاربة الأرض كبراغيث الرمل . ضغط العجوز رءوسها بين إبهامه وسبابته وأكلها وهو يمضغ قشورها وذيولها ، كانت صغيرة جدًّا ، ولكنه كان يعرف أنها مغذية ، وذات طعم مُستحب .

كان لدى الرجل العجوز جرعتان من الماء فى الزجاجة فشرب إحداهما بعد أن تناول تلك الوجبة .

ومضى المركب يسير مسيراً جيداً برغم المعوقات ، وكان يدير دفة المركب واضعاً ذراعها تحت إبطه .

كان يستطيع أن يرى السمكة ، وراح يتطلع إلى يديه ، ويشعر بظهره المستند إلى مؤخرة المركب ليعرف أن ذلك حدث حقيقة ، ولم يكن حلماً .

وفى أحد الأوقات حين شعر بسوء حاله قرب النهاية ظن أن ذلك ربما كان حُلْماً .

وعندما رأى السمكة تقفز من الماء وتتعلق ساكنة فى الهواء قبل أن تسقط، تأكد له أن هناك أشياء بالغة الغرابة لم يستطع أن يصدقها . وعندئذ لم يستطع أن يرى جيداً ، أما الآن فقد عادت إلى عينيه قوة إبصارها كما كانت دائماً .

وعرف الآن أن هناك كانت السمكة ، وأن يديه وظهره ليست حُلماً .

وقال لنفسه :

ـ إن الأيدى تشفى بسرعة . لقد نزفت يداى ، وستعمل المياه المالحة على اندمالها ، فمياه الخليج القاتمة هى خير ما تلتئم بها الجراح ، وكل ما يجب علىّ أن أعمله هو أن أحتفظ بحدة عقلى ومضائه ، وقد أحسنت يداى عملهما ، ونحن نمضى فى طريقنا على خير ما يرام ، وبفم السمكة المغلق، وذيلها الذى يعلو ويهبط على استقامته ، فإننا نبحر معاً كشقيق وشقيقته .

ثم بدأ ذهنه يفقد قليلاً من صفائه فتساءل :

ـ هل السمكة هى التى تجرنى أم أنا الذى أجرها ؟ فإذا كنت أنا الذى أقطرها فليس هناك اعتراض ، وإذا كانت السمكة داخل المركب وقد راح كل جلالها ووقارها فلا اعتراض لى أيضاً ، ولكننا نبحر معاً ، ونُساق جنباً إلى جنب .

وقال العجوز :

ـ لتجرنى السمكة إذا راق لها ذلك ، إننى أَفْضُلُها فقط بسعة حيلتى وقدرتى على خداعها ، وهى لا تنوى بى شرًّا .

سار المركب سيراً حثيثاً فى البحر ، وغمر الرجل العجوز يديه فى الماء المالح ، وحاول أن يحتفظ بصفاء ذهنه .

كانت هناك سحب عالية مؤلفة من أكداس مستديرة قواعدها منبسطة أفقيًّا ، كما بدا فوقهما سحاب رقيق شبيه بالصوف على ارتفاع شاهق منهما ، فعرف العجوز أن النسيم سيهب طوال الليل .

استمر العجوز يتطلع إلى السمكة ليتأكد من حقيقة ذلك ، ومرت ساعة قبل أن تلطمه أول سمكة من أسماك القرش .

لم يكن قدوم سمكة القرش مجرد مصادفة .

لقد صعد من الأعماق السحيقة حينما انسابت سحابة الدم القاتم وانتشرت إلى عمق ميل فى البحر ، فأسرع القرش بالصعود على نحو جازم قاطع بلا حذر ، حتى إنه شق سطح الماء الأزرق فى أشعة الشمس ، ثم هبط مرة ثانية إلى البحر ، وإذا به يلتقط رائحة الدم ، فشرع يسبح فى الطريق الذى كان يسلكه المركب والسمكة .

كان القرش يفقد الرائحة أحياناً ، ولكنه سرعان ما يلتقطها ثانية أو يحس بأثر ضئيل منها ، فيسبح بسرعة وقوة وثبات فى طريق المركب .

كان قرشاً كبير الحجم ، وجسمه ملائم للسباحة السريعة كأسرع سمكة فى البحر ، وكان كل ما فيه جميلاً ما عدا فكَّيْه .

وكان ظهره أزرقَ كزرقة سياف البحر (سمك أوقيانوسى ضخم طويل المنقار) ، وبطنه فضيًّا ، وجلده ناعماً بديعاً . وكانت بنيته مثل سياف البحر فيما عدا فكيه الضخمين المغلقين الآن بإحكام وهو يسبح بسرعة تحت

السطح مباشرة ، وزعنفته الظهرية نصلها منبسط خلال الماء بدون أن يتماوج .

وفى داخل شفته المزدوجة المغلقة فى فكيه كانت الصفوف الثمانية من أسنانه الهرمية الشكل تنحرف إلى الداخل .

ولم تكن أسنانه كالأسنان الهرمية لمعظم أسماك القرش العادية ، وإنما كانت على شكل أصابع الإنسان حينما تنحنى فتصبح كالمخالب ، وكانت فى طول أصابع الرجل العجوز ، وذات حد قاطع كالموسى من الجانبين .

وكانت بنية ذلك القرش ملائمة ليتغذى على كل أسماك البحر . وكان نوعاً سريعاً قويًا ، مسلحاً تسليحاً جيداً ، ولم يكن له أعداء من الأسماك الأخرى .

زاد القرش الآن من سرعته عندما اشتم الرائحة الطازجة للدم ، وراحت زعنفته الظهرية الزرقاء تشق الماء .

وحينما رآه العجوز قادماً عرف أنه من سمك القرش الذى لا يرهب شيئاً على الإطلاق ، وأنه يفعل ما يريده بالضبط .

أعد العجوز رمحه ، وأحكم تثبيت طرف حبله فى مربط الحبال فى قاع حنية المركب وهو يرقب القرش قادماً نحوه ، وكان الحبل قد أصبح قصيراً بعد أن نقص منه الجزء الذى قطعه العجوز ليربط به السمكة .

كان ذهن العجوز قد صفا وصار فى أحسن حال ، وامتلأ عزماً ، غير أن أمله كان ضعيفاً .

وقال لنفسه :

ـ ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

ورمق السمكة وهو يرقب دُنُوَّ القرش .

وهمس لنفسه :

ـ كان من الممكن أن يكون ذلك حُلماً هو الآخر ، لن أستطيع منع القرش من أن يهلكنى ، ولكنى قد أظفر به .

وقال :

ـ يا أبا الأسنان . . حظًّا تعساً لأمك .

اقترب القرش من مؤخرة المركب وعندما لطم السمكة شاهد العجوز فمه مفتوحاً ، وعينيه العجيبتين ، وطقطقة أسنانه وهى تتحرك حركة سريعة مفاجئة وتطبق على لحم السمكة بالقرب من ذيلها :

وكان رأس القرش خارجَ الماء ، وظهره يبرز ، واستطاع العجوز أن يسمع صوت تمزق جلد ولحم السمكة الكبيرة عندما طعن رأس القرش بالرمح فى الموضع الذى يتقاطع فيه الخط الممتد بين عينيه مع الخط الممتد من أنفه إلى الخلف .

لم تكن هناك مثل تلك الخطوط ، كان هناك فقط رأسه الأزرق الضخم الثقيل ، وعيناه الكبيرتان ، وفكاه اللذان يبتلعان كل شىء وقد اصطكت أسنانهما التى انغرزت فى اللحم .

غير أن الموضع الذى طعنه فيه العجوز كان موضع المخ .

طعنه العجوز بيديه الواهنتين اللتين طالما سالت دماؤهما ، وغرز فيه الرمح بكل قواه .

كانت طعنة بلا أمل ، ولكنه سددها بعزم وتصميم ، واستجمع فيها كل حقده وخبثه وعداوته الشديدة .

تأرجح القرش ، ورأى العجوز عينيه وقد غاضت منهما الحياة .

وتأرجح مرة أخرى ، ولف نفسه فى أنشوطتين من الحبل .

وعرف العجوز أن القرش قد مات .

غير أن القرش لم يتقبل الموت بتلك السهولة . . انقلب على ظهره وذيله يلطم الماء ، وفكاه يطقطقان ، وشق سطح الماء كقارب من قوارب السباق .

بدا الماء أبيض اللون حيث كان القرش يلطمه بذيله ، فى حين برزت ثلاثة أرباع جسمه بوضوح فوق الماء ، حينما توتر حبل الرمح ، وارتعش ثم انقطع .

ورقد القرش فى هدوء لفترة قصيرة طافياً فوق سطح الماء ، وظَلَّ العجوز يراقبه .

ثم بدأ القرش يهبط إلى أسفل ببطء شديد .

وقال العجوز بصوت مرتفع :

ـ لقد تناول أربعين رطلاً .

ثم أردف :

ـ وأخذ رمحى أيضاً ، والحبل كله ، وها هى ذى الدماء تسيل من سمكتى مرة أخرى ، وسيجتذب ذلك أسماك قرش أخرى .

لم يرق له أن ينظر إلى السمكة بعد الآن منذ أن بتر القرش جزءاً من لحمها ومَثَّل بها وشوهها . وعندما نهش لحمها كان كأنه ينهش لحمه .

وقال :

ـ ولكننى قد قتلت القرش الذى هاجم سمكتى ، وكان أضخم قرش رأيته فى حياتى ، ويعلم الله أننى سبق أن رأيت قروشاً ضخمة من ذلك النوع .

وهمس قائلاً :

ـ إن اصطيادى للسمكة الكبيرة تحقق به أمل كان أبدع من أن يطول ، إننى الآن أود لو أن ذلك كان حلماً ، وأن السمكة لم تعلق بخطاف ، وأننى كنت وحدى فى فراشى أرقد فوق الجرائد .

بيد أنه عاد يقول لنفسه :

ـ ولكن الرجل لم يخلق لكى يُهْـزَم . قد يتحطم الرجل إلا أنه لا ينهزم ، وبرغم ذلك فإنى آسف لأننى قتلت السمكة .

ثم قال :

ـ والآن سيجىء الوقت السيىء ، وليس معى الآن رمح . إن أبا الأسنان قاسٍ وقوى وقادر وذكى ، ولكننى كنت أذكى منه .

وقال مستدركاً :

ـ ربما لم أكن أذكى منه . . ربما كنت فقط أفضل تسليحاً منه .

وصاح قائلاً :

ـ لا تفكر أيها الرجل العجوز ، امْضِ فى ذلك الطريق ، وواجِهْ ما قد يحدث .

واستطرد قائلاً :

ـ ولكن يجب أن أفكر، فالتفكير هو كل ما بقى لى، التفكير والبيسبول ، وإنى لأتساءل كيف ستروق لديهادجو العظيم الطريقة التى أَصَبْتُ بها القرش فى مخه ؟

وأردف :

ـ لم يكن هذا شيئاً عظيماً ، فأى رجل يستطيع أن يفعل ذلك . ولكن هل تؤلمنى وتعوقنى يداى مثلما آلمنى نخس عظام الكعوب ؟ لست أدرى . إننى لم أُصَبْ قط بشىء فى كعبى إلاَّ فى تلك المرة التى لسعتنى فيها سمكة الراى اللسَّاع فى كعبى عندما لامستها وأنا أسبح ، فشَلَّت الجزء الأسفل من ساقى، وسببت لى آلاماً لا تحتمل .

ثم انثنى يقول لنفسه :

ـ فكرْ فى شىء مرح بهيج أيها الرجل العجوز ، فكل دقيقة تمضى تزيدك قُرباً من البيت ، فأنت تبحر خفيفاً بعد أن فقدت السمكة أربعين رطلاً من وزنها .

كان العجوز يعرف جيداً ما يمكن حدوثه عندما وصل إلى عمق التيار ، ولكن لم يعد أمامه ما يفعله الآن ؛ إذ لا حيلة له فى هذا الأمر .

ولكنه استدرك صائحاً :

ـ نعم لدىَّ ما أفعله ؛ إذْ يمكننى أن أربط سكينى فى الطرف الغليظ لأحد المجذافين .

فعل ذلك، وكانت ذراع الدفة تحت إبطه ، وحبل الشراع تحت قدمه .

وقال لنفسه :

ـ إننى الآن رجل عجوز ، ولكننى لست مجرداً من السلاح .

القسم الخامس



كان النسيم منعشاً فى ذلك الوقت ، والإبحار على خير ما يرام .
تطلع العجوز إلى الجزء الأمامى من السمكة ، فعاوده الأمل .

وفكر قائلاً :

ـ من السذاجة والحماقة أن يفقد المرء الأمل ، هذا بجانب أننى أعتقد أن اليأس خطيئة .

ثم أردف :

ـ لا تفكر فى الخطيئة ، فقد سبق السيف العذل ، والوقت متأخر الآن . لقد وُلدت لأكون صياداً ، كما أن السمكة قد ولدت لتكون سمكة . كان القديس بدرو صياداً . كذلك كان والد ديمادجو العظيم صياداً .

ولكنه راق له أن يفكر فى كل الأشياء المحيطة به . ولما كان لا يوجد لديه ما يقرؤه ، وليس معه « راديو » فقد استغرق فى التفكير ، وواصل التفكير فى الخطيئة .

وقال لنفسه :

ـ إنك لم تقتل السمكة فقط من أجل أن تعيش ، ولتبيعها كغذاء

للناس، وإنما إرضاء لكبريائك واعتدادك بنفسك ، ولأنك صياد . . لقد أحببتها وهى حية ، وأحببتها بعد أن فارقت ا لحياة ، وإذا كنت تحبها فهل قتلك لها يُعد خطيئة ، أو أن ذلك شىء أكبر من الخطيئة ؟

وصاح العجوز قائلاً :

ـ إنك تفكر أكثر من اللازم أيها الرجل العجوز ، ولكنك استمتعت بقتل أبى الأسنان ، إنه يعيش على الأسماك التى أعيش عليها أنا الآخر ، وهو ليس قمَّاماً يقتات بالقمامة ، أو مجرد شهية متحركة من أجل الطعام مثل بعض أسماك القرش ، إنه جميل ونبيل ولا يهاب شيئاً .

ثم قال بصوت مرتفع :

ـ لقد قتلته دفاعاً عن النفس ، وقد أحسنت قتله .

وأردف :

ـ هذا بجانب أن كثيراً من الأحياء تقتل غيرها من الأحياء بطريقة ما . . إن صيد الأسماك يقتلنى مثلما يحفظ حياتى تماماً .

ثم فكر قائلاً :

ـ إن الصبى يحرص على حياتى ، ولا يجدر بى أن أخدع نفسى كثيراً .

انحنى فوق جانب المركب ، واقتلع قطعة من لحم السمكة فى الموضع الذى نهشه القرش ، ومضغها مختبراً نوعيتها وحُسن مذاقها .

كانت متماسكة وذات عصير له نكهة مثل طعم لحم الماشية ، غير أنها لم تكن من اللحوم الحمراء ، ولم يكن بها خيوط وألياف ، فعرف أنها ستدر

عليه أغلى الأسعار فى السوق ، ولكن لم تكن هناك طريقة لمنع تسلل رائحتها خلال مياه البحر ، وكان العجوز يدرك أنه مقبل على وقت عسير .

كان النسيم يهب رتيباً منتظماً ، واتجه قليلاً نحو الشمال الشرقى ، فعرف العجوز أن ذلك يعنى أنه لن يتوقف .

رنا العجوز ببصره إلى الأمام ، فلم يتمكن من رؤية أية أشرعة ، أو سفن أو دخان أية باخرة .

كانت هناك الأسماك الطائرة وهى تطير صاعدة من حنية المركب متجهة إلى كلا الجانبين ، وبقع طحالب الخليج الصفراء . ولم يكن يرى أى طائر .

أبحر العجوز بمركبه ساعتين ، قابعاً عند المؤخرة ، وهو يمضغ قطعة من لحم سمكة المرلين بين حين وآخر محاولاً أن يخلد إلى الراحة ، وأن يستعيد قوته حين لمح سمكتى قرش ، فصاح بصوت عالٍ كالذى ينبعث من إنسان بدون إرادته حين يشعر بمسمار ينفذ فى يده وفى الخشب .

لقد رأى الآن الزعنفة الثانية آتية فى إثر الأولى ، واستطاع تحديد صنفى سمكتى القرش بأنهما من النوع ذى الأنف الشبيه بالمجرفة ، وذلك بعد أن لاحظ أن الزعنفة بنية اللون ومثلثة الشكل ، ومن حركات الذيل القوية .

لقد أحست سمكتا القرش برائحة الدماء فاهتاجتا ، واختلط عليهما الأمر بشدة جوعهما ، فلم تعثرا على منبع الرائحة وهما فى غمرة اهتياجهما ، غير أنهما كانتا طوال الوقت تقتربان .

ضغط الرجل العجوز بقدمه على حبل الشراع بشدة ، وثبت ذراع الدفة ، ثم تناول المجذاف الذى ربطت السكين فى طرفه ، ورفعه بخفة قدر

استطاعته، إذْ كانت يداه قد تمردتا من الألم . بسط يديه ثم أغلقهما حول المجذاف بخفة لتسترخيا ، ثم أغلقهما بإحكام لعله يخلصهما من الألم ، وحتى لا يجفلا من العمل ، ويحجما عنه ، وراقب مجيء سمكتى القرش .

استطاع الآن أن يرى رأسيهما المفلطحين ومقدمتهما الشبيهة بالمجرفة ، وزعنفتيهما الصدريتين العريضتين ذَوَاتَىْ الأطراف البيضاء .

كانتا من أسماك القرش التى تتميز بالشراسة ، والكريهة الرائحة ، والتى تقتات بالقمامة ، وتتميز بالقتل أيضاً ، وعندما يعضها الجوع بنابه فإنها قد تعض مجذاف أحد الزوارق أو دفته .

وهذا النوع من أسماك القرش هو الذى يقضم أرجل السلاحف ، ويقلبها عندما تكون نائمة على سطح الماء ، كما أنها تهاجم الإنسان وتنقض عليه وتهلكه إذا كانت جائعة ، حتى إذا كان المرء غير عالقة به رائحة دماء الأسماك أو المادة اللزجة أو الغروية التى يفرزها السمك .

صرخ العجوز قائلاً :

ـ يا أسماك القرش الرشيقة هَيَّا . . أقدمى .

ها هما قد أقبلا ، ولكنهما لم يجيئا كما جاء القرش أبو الأسنان من ، لقد استدار أحدهما ، واختفى عن ناظرى العجوز ، أسفل المركب .

شعر العجوز بالمركب يهتز عندما قفز القرش وجذب السمكة .

أما القرش الآخر فقد أخذ يرمق العجوز بعينيه الصفراوين الضيقتين كما لو كانا شقين طوليين ، ثم أسرع بفكيه اللذين لهما شكل نصف دائرى ، وقد فتحهما على اتساعهما ، وانقض على الجزء المبتور من السمكة الضخمة .

كان هناك خط واضح يمتد من قمة رأسه البنى حتى الظهر حيث يتصل المخ بالحبل الشوكى ، فطعنه العجوز فى مكان ذلك الاتصال بالسكين المثبتة فى المجداف ثم سحبها ، وسدد إليه طعنة فى عينيه الصفراويين .

ترك القرش السمكة ، وانزلق هابطاً فى الماء وهو يبتلع ما قضمه من لحمها فى حين كان يعانى سكرات الموت .

كان المركب ما زال يهتز والقرش الآخر يدمر السمكة ، فأرخى العجوز العنان لحبل الشراع فتأرجح المركب بشدة ، فصعد القرش من أسفله، وعندما رأى العجوز القرش انحنى فوق جانب المركب ونخسه بشدة ، ولكنه نخس اللحم فقط ، فالجلد كان سميكاً ، ولم تنغرز السكين فيه إلا على نحو هزيل ، وبشق الأنفس ، ولم تؤلم الطعنة يدى العجوز فحسب ، بل أوجعت كتفيه أيضاً .

ولكن القرش صعد مسرعاً ، وبرز رأسه من الماء ، فطعنه العجوز طعنة قوية بزاوية قائمة فى مركز الجزء المسطح من رأسه ، فسقط أنفه فى الماء ، واستقر فوق السمكة .

سحب العجوز نصل سكينه ، ونخس القرش مرة أخرى فى نفس الموضع، وكان القرش مازال معلقاً بفكيه فى السمكة ، فطعنه العجوز فى عينه اليسرى ، وظل القرش معلقاً هناك .

قال العجوز :

ـ كلا .

ودفع النصل بين الفقرات والمخ ، كانت طعنة سهلة هذه المرة ، وأحس بالغضروف يقطع ويتمزق .

عكس العجوز المجذاف ، ووضع السكين بين فكى القرش ليفتحهما . وثنى النصل فانزلق القرش تاركاً السمكة .

فقال العجوز :

ـ اذهب أيها القرش الرشيق ، اهبط إلى عمق ميل ، اذهب لترى صديقتك ، وربما كانت أمك .

مسح العجوز نصل سكينه ، وأعاد المجذاف إلى موضعه ، وثبت حبل الشراع الذى انفتح بالهواء ، وجعل المركب يسير فى طريقه .

وصاح العجوز :

ـ لا بد أنهما قد أتيا على ربع السمكة ، وعلى أجود الأجزاء فيها . . ليت ذلك كان حلماً ، وأننى لم أصطد تلك السمكة . إننى آسف لك أيتها السمكة . لقد ساء كل شىء .

سكت الرجل عن الكلام ، ولم تطاوعه نفسه على النظر إليها الآن .

وبرغم الدماء التى تنزف منها ، وتلاطم الأمواج فوقها ، فمازال لون ظهرها الفضى الذى يشبه المرآة ظاهراً ، وكذلك خطوطها كانت واضحة .

وهمس قائلاً :

ـ ما كان لى أن أتوغل هكذا بعيداً فى البحر أيتها السمكة ، لا من أجلك ولا من أجلى ، أنا آسف أيتها السمكة !

ثم قال لنفسه الآن :

ـ انظر إلى الرباط الذى يثبت السكين بالمجذاف لترى إن كان قد تمزق ،

ثم اجعل يديك متأهبتين للعمل ؛ إذ مازال هناك المزيد مما سيقابلنا .

اطمأن الرجل على الرباط المثبتة به السكين فوق طرف المجذاف ، ثم قال :

ـ كم وددت أن يكون معى حجر لأشحذ عليه السكين .

ثم انثنى يقول مرة أخرى :

ـ كان ينبغى أن أحضر معى حجراً .

وأضاف قائلاً :

ـ كان يجب أن تجىء بأشياء كثيرة ، ولكنك لم تحضرها معك أيها العجوز. على كل حالٍ ليس هذا أوان التفكير فيما ليس معك ، فَكِّرْ فيما يمكنك أن تفعله بما هو موجود لديك .

وقال لنفسه بصوت عالٍ :

ـ لقد أسرفت فى إعطائى النصيحة والمشورة ، وقد تعبت منهما .

وضع ذراع الدفة تحت إبطه ، وغمر كلتا يديه فى الماء فى حين كان المركب يمضى قُدماً .

ثم قال :

ـ يعلم الله كم تناول القرش الأخير من لحم السمكة ، ولكن المركب أصبح أخف الآن .

لم يعد يريد أن يفكر فى الجزء السفلى المبتور من السمكة ، إنه يعرف أن كل ضربة من وثبات القرش كانت لحماً يُمزق ويُنتزع من السمكة التى نشرت

رائحة ممتدة فى الماء لجذب كل أسماك القرش فى مسار عريض كطريق عام .

فكر العجوز قائلاً :

ـ كانت سمكة كافية لأن يعيش المرء طوال الشتاء بما تدره من ربح .

وأردف :

ـ لا تفكرْ فى ذلك ، استرح الآن ، وحاول أن تحتفظ بيديك قويتين لتدافع عمَّا بقى من السمكة ، إن رائحة الدم فى يدىّ لا تعنى الآن شيئاً بالقياس إلى كل رائحة الدماء المنتشرة فى الماء ، هذا بالإضافة إلى أن يدىّ لا تنزفان كثيراً ، وقد يحفظ ذلك النزف يدى اليسرى من التقلص .

وقال لنفسه :

ـ ماذا يمكننى أن أفكر فيه الآن ؟ لا شىء . يجب ألاَّ أفكر فى أى شىء ، وأن أنتظر ما يجىء ، كم أتمنى أن يكون ما فات حلماً حقيقيًّا ! ولكن من يدرى ؟ لعل الأمر ينتهى على خير وجه .

جاء قرش آخر من النوع ذى الأنف الذى يشبه المجرفة . . أتى عبر الطريق كالخنزير ، إذ كان له فم من الاتساع بحيث يسمح لك بأن تضع رأسك فيه .

لقد تركه العجوز يهاجم السمكة ثم طعنه فى مخه بالسكين المشدودة ، ولكن القرش قفز إلى الخلف وهو يتمايل ويترنح ، وانقصف نصل السكين .

توجه العجوز إلى الدفة ، ولم يراقب القرش وهو يغوص ببطء فى الماء وحجمه يتناقص عن حجمه الطبيعى إلى حجم أصغر حتى صار بالغ الصغر .

كان ذلك المشهد يفتن الرجل العجوز دائماً ، أما الآن فلم يعن حتى بالنظر إليه .

وقال العجوز :

ـ لدىَّ الآن الخطاف الذى أستعمله لرفع الأسماك الثقيلة ، غير أنه لا يرجى منه خَيْرٌ. وعندى المجذافان ، وذراع الدفة ، والهراوة القصيرة .

وأضاف العجوز :

ـ الآن قد تغلبت القروش علىّ ، إننى أعجز من أن أضربها بالهراوة حتى الموت ، ولكننى سأحاول ذلك طالما كان معى المجذافان والهراوة القصيرة وذراع الدفة .

وضع يديه فى الماء مرة أخرى لتنظيفهما ، كان الوقت متأخراً بعد الظهر ، وهو لا يرى شيئاً سوى البحر والسماء .

ازداد هبوب الرياح فى السماء أكثر من ذى قبل ، وسرعان ما راود العجوز الأمل فى أن يرى البر .

وقال لنفسه :

ـ لقد حل بك التعب أيها العجوز ، وأنت مُتْعَبٌ من الداخل .

لم تعاود القروش مهاجمته حتى قبيل غروب الشمس .

شاهد العجوز الزعانف البنية قادمة عبر الطريق العريض الذى شقته السمكة فى الماء برائحة دمائها .

لم تكن القروش تتبع الرائحة ، وإنما كانت تتجه رأساً إلى المركب وهى تسبح جنباً إلى جنب .

دفع ذراع الدفة بقوة ، وثبت حبل الشراع بإحكام ، وبلغ مؤخرة المركب من أجل الهراوة . . كانت يد مجذاف حصل عليها من مجذاف مكسور ، وقطعت بالمنشار ، فأصبح طولها نحو قدمين ونصف القدم . إنه يستطيع أن يستخدمها بيد واحدة فقط بسبب صغر مقبضها ، وأمسكها بيده اليمنى وهو يثنى قبضته عليها بإحكام ، فى حين كان يرقب مجىء القروش .

وجاءت سمكتا قرش من نوع القرش الرشيق .

وفكر قائلاً :

ـ يجب أن أدع أولهما يغرز أسنانه جيداً فى السمكة ، ثم أضربه على طرف أنفه ، أو على استقامة الجزء العلوى من رأسه .

وقَدِمَ القرشان معاً . وحين شاهد أقربهما إليه يفتح فَكَّيْهِ ويغرزهما فى جانب السمكة الفضى ، رفع الهراوة عالياً وأهوى بضربة عنيفة فوق الجزء العلوى من رأسه العريض ، فشعر به كأنه جسم مطاطىٌّ عندما هوت الهراوة فوقه ، كما أحس أيضاً بصلابة عظامه ، فسدد للقرش ضربة قوية أخرى فوق طرف أنفه ، فانزلق مبتعداً عن السمكة .

أما القرش الآخر فكان يسبح جيئة وذهاباً ، واقترب الآن مرة أخرى بفكيه مفتوحين .

ورأى العجوز قطعاً من لحم السمكة تتساقط بلونها الأبيض من زاوية فكيه حين انقضَّ عليها ، وأطبق بأسنانه على لحمها .

طوح العجوز بالهراوة ، وأهوى بها على رأسه ، فتطلع إليه القرش ، وانتثر اللحم من فمه .

طوح العجوز بالهراوة ، وأهوى بها عليه مرة أخرى ، فانزلق مبتعداً ليبتلع ما تبقى فى فمه . . ارتطمت الهراوة فقط بالجزء المطاطى من رأس القرش .

وقال العجوز :

ـ تعالَ أيها القرش الرشيق ، أَقْـدِمْ مرة أخرى .

جاء القرش باندفاع شديد ، فضربه العجوز حين أطبق فكيه على لحم السمكة بقوة ، ومن أعلى مستوى استطاع أن يرفع إليه الهراوة ، وأحس هذه المرة بالعظمة الموجودة عند قاعدة المخ ، فضربه مرة أخرى فى نفس الموضع ، فى حين كان القرش يمزق لحم السمكة ، فأفلتت منه ببطء ، وانزلق إلى أسفل تاركاً السمكة .

أخذ العجوز يرقب مجىء القرش ، ولكن لم يظهر أىٌّ منهما . ولم يلبث أن رأى واحداً فوق السطح يسبح وهو يحوم فى حركة دائرية ، ولم ير زعانفه .

وقال العجوز لنفسه :

ـ ما كنت أتوقع أن أقتلهما ، كنت أستطيع ذلك أيام الشباب ، ولكننى آذيتهما أيما إيذاء ، ولن تقوم قائمة لأى منهما . لو كان معى مضرب غليظ أستطيع إمساكه بكلتا يدىّ لتمكنت من قتل أولهما بكل تأكيد حتى وأنا فى هذه السن الآن .

إنه لا يريد أن ينظر إلى السمكة ، إنه يعلم أن نصفها قد قضى عليه .

وكانت الشمس قد غربت حين كان يخوض المعركة ضد القروش .

وهمس قائلاً :

ـ سرعان ما سيهبط الظلام ، عندئذ أستطيع أن أرى وهج أضواء

«هافانا» وإذا كنت قد أوغلت بعيداً نحو الشرق فسأرى أضواء أحد الشواطىء الجديدة .

وأضاف قائلاً :

ـ لا يمكن أن أكون الآن على بُعد كبير ، وآمل ألاَّ يكون أحـدٌ قد أصابه قلق شديد من أجلى ، وعلى الأقل هناك الصبى الذى سينتابه القلق بالطبع، ولكننى متأكد أن لديه ثقة بى ، وسيقلق الكثيرون من عجائز الصيادين ، وسيقلق كثيرٌ غيرهم أيضاً ، إننى أقطن بلدة طيبة .

إنه لم يعد يستطيع أن يتوجه بحديثه إلى السمكة بعد الآن ، فقد أصابها الدمار على نحو ردىء إلى أبعد الحدود . غير أنه لم يلبث أن قفز خاطر إلى ذهنه، فقال محدثاً ما تبقى من السمكة :

ـ أيها النصف السمكة ، يا من كنت سمكة ، إننى آسف إذ مضيت بعيداً فى البحر ، لقد دُمِّـرَ كلانا . ولكننا قتلنا قروشاً عديدة أنت وأنا ، وأصبنا كثيراً غيرها إصابات بالغة . هلاَّ قُلْتِ لها كم سمكة قتلْتِهَا فى حياتك أيتها السمكة العجوز ؟ إن ذلك السهم فوق رأسك لا يوجد عبثاً .

وراق له أن يفكر فى السمكة ، وماذا كانت عساها فاعلة إذا كانت تسبح فى البحر حرة طليقة والتقت مع أحد القروش ؟

وقال لنفسه :

ـ كان ينبغى أن أقطع منقـارك لأحـارب به القـروش ، ولكن ليـس معـى « بَلْطَة » ، كما أصبحت لا أملك سكيناً ، غير أننى إذا حصلت على منقارك وربطته فى المقذاف فيا له من سلاح ! إذنْ لَكُنَّا قاتلنا القروش معاً ،

وماذا عساكِ تفعلين الآن إذا جاءت القروش فى الليل ؟ ماذا يمكنك أن تفعليه؟

وهنا قال :

ـ نحاربها . سأحاربها حتى يدركنى الموت .

ولكن فى هذا الظلام الجاثم الآن ، وليس هناك أى وهج ، ولا أضواء ، اللهم إلاَّ الريح ، والشراع الذى يسحب المركب ، شعر العجوز بأنه الآن ميتٌ ، فألصق إحدى راحتيه بالأخرى ليتحسسهما . . لم يزحف الموت إليهما بعد ، وكان باستطاعته أن يستحضر آلام الحياة ببساطة عن طريق فتحهما و إغلاقهما . انحنى بظهره عند مؤخرة المركب ، فأدرك أنه لم يمت بعد كما أبلغته بذلك كتفاه .

وقال لنفسه :

ـ إننى أعرف كل الصلوات التى وعدتُ بأدائها حين أظفر بالسمكة ، ولكنَّ الإعياء أخذ منى كل مأخذ ، حتى لم يعد فى استطاعتى أن أتلوها . . خيرٌ لى أن أحضر الكيس وأضعه فوق كتفىّ .

رقد عند مؤخرة المركب وهو يدير الدفة مترقباً أى وهج يبدو فى السماء .

وهمس قائلاً :

ـ معى الآن نصف السمكة ، وقد أكون محظوظاً فأحتفظ بذلك النصف ، لا بد أن يحالفنى بعض الحظ .

ثم استدرك قائلاً :

ـ كلا . . فقد انتهكت حُرمة حظك حين توغلت بعيداً فى البحر .

ولكنه قال بصوت مرتفع :

ـ لا تكن ساذجاً سخيفاً ، ولتظل متيقظاً ، وأَدِرِ الدَّفَّة ، فلعله ما زال فى انتظارك كثير من الحظ .

ثم قال :

ـ كم أود أن أشترى بعضاً منه ، إذا كان هناك مكان يبيعونه فيه .

وهنا سأل نفسه :

ـ بماذا أستطيع أن أبتاعه ؟ هل يمكننى أن أشتريه برمح مفقود ، وسكين مكسورة ، ويدين رديئتين عليلتين ؟

ثم قال :

ـ يجب أن تسعى نحو ذلك ، فقد حاولت أن تشتريه بأربعة وثمانين يوماً فى البحر ، ومن ثم باعته إياه تلك الأيام أيضاً بالمثل .

وفكر فى أعماقه :

ـ يجب ألاَّ أفكر ذلك التفكير التافه ، فالحظ شىء يجىء فى أشكال عديدة، ومن ذا الذى يستطيع أن يدركه ويتعرف عليه ؟ سآخذ بعضاً منه على أى شكل كان ، وسأدفع فيه ما يطلبون .

ثم قال :

ـ كم أود أنْ أَرَى وهج الأضواء ، إننى أتمنى أيضاً كثيراً من الأشياء ، ولكن ذلك الوهج هو الذى أتمناه الآن .

وحاول الآن أن يتخذ وضعاً أكثر راحة ليدير الدفة ، وأدرك من الآلام التى يعانيها أنه لم يمت بعد .

ثم رأى انعكاسات الأضواء الساطعة المنبعثة من المدينة فى الوقت الذى حدده بأنه حوالى العاشرة مساءً .

لقد أدرك تلك الأضواء بإحساسه فى أول الأمر ؛ لأنها كانت أضواءً فى السماء قبل طلوع القمر ، ثم ظل مرآها ثابتاً عبر المحيط الذى كان مضطرباً هائجاً مع ازدياد النسيم .

أدار الدفة نحو الوهج ، وأدرك أنه سرعان ما سيتقدم شيئاً فشيئاً ليسير مع التيار .

وقال لنفسه :

ـ الآن أوشكت المتاعب أن تنتهى . . من المحتمل أن تهاجمنى القروش مرة أخرى ، ولكن كيف يستطيع المرء أن ينازلها تحت جنح الظلام بدون أن يكون معه سلاح ؟

تجمدت أعضاء العجوز من برودة الليل ، وأصبحت مصدر إزعاج له ، وكانت جروحه ، وكل الأجزاء المتوترة من جسده ، تسبب له ألماً مُمِضًّا .

وقال :

ـ أتمنى ألاَّ أقاتل مرة أخرى ، آمل كثيراً ألاَّ أخوض معارك أخرى .

غير أنه عندما انتصف الليل خاض معركة أخرى ، وكان يعلم هذه المرة أن القتال لا جدوى منه .

جاءت القروش بأعداد وفيرة ، واستطاع فقط أن يرى الخطوط التى رسمتها زعانفها فى الماء ووميضها الفوسفورى عندما انقضت على السمكة ، فراح يضربها فوق رءوسها بهراوته ، وسمع فكوكها تنشق ، وأحس باهتزاز المركب عندما نزلت القروش تحته .

وظل يضرب يائساً تجاه كل ما يستطيع أن يشعر به أو يسمعه ، ثم أحس بأن شيئاً أمسك بالهراوة ، وأفلتت منه .

انتزع ذراع الدفة وأخذ يضرب به بكلتا يديه ويغرزه المرة تلو المرة ، ولكن القروش صعدت الآن إلى حافة حنية المركب واحداً وراء الآخر ، وتجمعت معاً وهى تمزق لحم السمكة ، وتنتزعها قطعة قطعة ، وقد بدت متوهجة تحت البحر ، ثم استدارت القروش لتجىء مرة أخرى .

وتقدم أحد القروش فى النهاية من رأس السمكة فأدرك العجوز أن السمكة قد انتهت ، وطوح بذراع الدفة وأهوى به فوق رأس القرش الذى تعلق فكاه فى رأس السمكة الضخم الثقيل والذى أخفق فى تمزيقها ، وأهوى بذراع الدفة على رأس القرش مرة ومرتين ، وعاودَ الكَرَّةَ ، وإذا به يسمع صوت تكسر ذراع الدفة ، فطعن القرش بالشريحة المتبقية من طرفها الغليظ ، فشعر بها تنغرز ، فأدرك أنها حادة ، وعاود الطعن بها ، فابتعد القرش وهو يتمايل ويترنح ، وكان هذا آخر قرش بقى من مجموعة القروش ، ولم يعد هناك ما يأكلونه .

إن العجوز الآن يتنفس بشق الأنفس ، ويحس بطعم غريب فى فمه . . كان طعماً نحاسيًّا حلواً ، فاعتراه الخوف لحظة .

بصق فى المحيط قائلاً :

ـ تناوليها أيتها القروش الرشيقة ، واحلمى أنك قتلت رجلاً .

إنه يعرف أنه غلب على أمره فى النهاية ، وأنه لا علاج لذلك . وعاد إلى مؤخرة المركب ، ووجد الطرف المفلول من ذراع الدفة يمكن إدخاله فى الفتحة الضيقة المستطيلة بها ، وأن ذلك يكفى لتمكينه من إدارة دفة المركب، ولف الكيس حول كتفيه ، وجعل المركب يسير فى طريقه .

أبحر العجوز الآن بسهولة ورفق ، وبلا مبالاة ، بدون أن تكون لديه أفكار أو أية مشاعر من أى نوع .

لقد مضى كل شىء الآن ، وأقلع بمركبه ميمماً وجهه شطر ميناء موطنه برباطة جأش على نحو مُـرْضٍ وبذكاء على قدر استطاعته .

هاجمت القروش المركب فى أثناء الليل كما يفعل شخص ما حين يلتقط الفتات المتبقى فوق المائدة .

لم يُعِر العجوز القروش اهتماماً ، ولم يُلْقِ بالاً لأى شىء سوى إدارة الدفة وتوجيهها ، ولاحَظَ فقط كيف يسير المركب الآن فى سهولة وبطريقة حسنة مرضية ، حيث لم يعد يعوقها ثقل كبير بجانبها .

وقال فى نفسه :

ـ ها هو ذا المركب يمضى سليما لم يصبه ضُـرٌّ بأى حال ، عدا ذراع الدفة ، وهذا يمكن تعويضه بسهولة .

استطاع أن يشعر أنه يسير مع التيار الآن ، وأنه يرى أضواء المستعمرات الساحلية على طول الشاطىء .

عرف الآن أين كان ، وأنه يمضى قُـدُماً نحو موطنه .

وقال :

ـ إن الريح صديقة لنا بأية حال .

ثم أضاف :

ـ أحياناً ، أما البحر العظيم فهو مع أصدقائنا ومع أعدائنا .

وهمس قائلاً :

ـ وفراشى . . إنه صديقى .

واستطرد قائلاً :

ـ إنه فراش بكل ما فى الكلمة من معنى ، وسيكون شيئاً عظيماً . . إنه مريح عندما تُهزم .

ثم قال :

ـ لم أكن أعرف قط أنه مريح إلى هذا الحد .

وتساءل قائلاً :

ـ ومن الذى هزمك ؟

أجاب بصوت عالٍ :

ـ لا شىء . . أنا الذى أوغلت بعيداً .

وعندما دخل مركبه إلى الميناء الصغير ، بدت الشرفة مطفأة الأضواء، فعرف أن الجميع فى فراشهم .

كان النسيم يهب ، ثم أخذ الآن يشتد ، غير أن الهدوء كان يسود الميناء، وسار بمركبه إلى البقعة الصغيرة التى يكثر فيها الحصى تحت الصخور .

لم يكن هناك أحد ليمد له يد المساعدة ؛ لذا دفع المركب إلى الساحل قدر استطاعته ، ثم خَطَا خارجه ، وشده إلى إحدى الصخور .

خلع الصارى من مكانه ، وطوى حوله الشراع وربطه ، ثم حمله على كتفه وبدأ يصعد ، وهنا عرف عمق ما حلَّ به من تعب . . توقف لحظة وتطلع إلى الخلف ، فشاهد من خلال الأشعة المنعكسة من ضوء الشارع ذيل السمكة الضخم فى وَضْعٍ رأسى خلف مؤخرة المركب ، ورأى عمودها الفقرى أبيض عارياً ، وكتلة الرأس القاتمة بمنقارها البارز ، وكان ما بينهما مجرداً من اللحم .

وعاود الصعود مرة أخرى ، وعند القمة سقط ورقد بعض الوقت ، والصارى على كتفه .

حاول أن ينهض ، ولكن ذلك كان شاقًّا عليه ، فجلس هناك والصارى فوق كتفه ، ونظر إلى الطريق .

لمح قطة تمر فى الجانب البعيد وهى تمضى إلى حال سبيلها ، فراح العجوز يراقبها .

وأخيراً أنزل الصارى ونهض مستوياً على قدميه ، التقط الصارى ووضعه على كتفه واستأنف سيره ، ولكنه اضطر إلى الجلوس خمس مرات قبل أن يصل إلى كوخه .

أسند الصارى إلى الجدار داخل الكوخ ، وعثر فى الظلام على زجاجة ماء فشرب منها جرعة ، ثم تمدد فوق فراشه ، وجذب البطانية فوق كتفيه ثم فوق ظهره وساقيه ، ونام ووجهه إلى أسفل فوق أوْراق الصحف مادًّا ذراعيه على استقامتهما ، جاعلاً راحتى يديه إلى أعلى .

كان نائماً حين جاء الصبى فى الصباح ، ونظر من خلال الباب .

اشتد هبوب الريح حتى إن القوارب انحرفت عن خطوط سيرها فلم تتمكن من مواصلة ا لسير ، وكان الصبى قد نام فى ساعة متأخرة ، ثم جاء إلى كوخ الرجل العجوز كعادته كل صباح .

نظر الصبى إلى العجوز فوجده يتنفس ، ثم رأى يديه فانخرط فى البكاء ، وخرج فى هدوء ليجىء له ببعض القهوة .

وظل الصبى يبكى طوال الطريق .

تجمع كثير من الصيادين حول المركب وهم ينظرون إلى ما كان مربوطاً إلى جانبه ، وكان أحدهم فى الماء وقد ثنى بنطلونه ، وأخذ يقيس هيكل السمكة بخيط .

لم يهبط الصبى إلى مكان المركب ، فقد ذهب إلى هناك من قبل ، وكان أحد الصيادين يعنى بالمركب من أجله .

صاح أحد الصيادين :

ـ كيف حاله ؟

فأجابه الصبى صائحاً :

ـ إنه نائم .

لم يُبال الصبى بأنهم رأوه يبكى وقال :

ـ أرجو ألاَّ يزعجه أحد .

وقال الصياد الذى كان يقيس هيكل السمكة :

ـ كانت تبلغ من الطول ثمانية عشر قدماً من الأنف إلى الذيل .

فقال الصبى :

ـ إننى أصدق ذلك .

ومضى الصبى إلى الشرفة ، وطلب إناءً من القهوة ، وقال :

ـ ساخنة وممزوجة بمقدار وافر من اللبن ، وفيها السكر .

ـ أى شىء آخر ؟

ـ كلا . . وسأرى فيما بعد ماذا يأكل .

قال صاحب الشرفة :

ـ يا لها من سمكة ! لم ير أحد قط مثل هذه السمكة ! على أن السمكتين اللتين حصلت عليهما بالأمس كانتا رائعتين .

فقال الصبى :

ـ اللعنة على سمكاتى .

وشرع فى البكاء مرة أخرى .

وساله صاحب الشرفة :

ـ ألا تريد شراباً من أى نوع ؟

فقال الصبى :

ـ كلا . . وقل لهم ألاَّ يزعجوا سانتياجو ، وسأعود ثانية .

ـ أبلغه كم أنا آسف..

رد عليه الصبى قائلاً :

ـ شكراً .

ـ حمل الصبى إناء القهوة الساخنة وصعد به إلى كوخ الرجل العجوز ، وجلس بجانبه حتى استيقظ ، لقد بدا عليه فى إحدى المرات كما لو كان يستيقظ ، ولكنه عاد واستغرق فى نوم عميق .

غادر الصبى الكوخ إلى الطريق ليستعير بعض الأخشاب لتسخين القهوة .

وأخيراً استيقظ العجوز ، فقال له الصبى :

ـ لا تنهض لتجلس . . اشرب هذا .

وصب بعض القهوة فى كوب .

تناولها العجوز واحتساها ، قائلاً :

ـ لقد تغلبوا علىّ يا مانولين .

وأردف :

ـ حقًّا لقد انتصروا علىّ .

فقال الصبى :

ـ إن السمكة لم تهزمك .

ـ حقًّا ، ولكن حدث ذلك فيما بعد .

ـ إن بدريكو يعنى بالمركب والمعدات .. ماذا تريد أن نفعل برأس السمكة؟

ـ دع بدريكو يقطعها لتُستعمل فخاخاً للأسماك .

ـ ومنقارها ؟

ـ احتفظ به أنت إذا كنت تريده .

فقال الصبى :

ـ إننى أريده . . والآن يجب أن نعد خططنا حول الأشياء الأخرى .

ـ هل يحثوا عنى ؟

ـ طبعاً ، مع خفر السواحل والطائرات .

فقال العجوز :

ـ المحيط فسيح الأرجاء والمركب صغير ، وتصعب رؤيته .

لاحظ العجوز كم هو سارٌّ أن تجد أحداً تتحدث إليه بدلاً من التحدث فقط إلى نفسك وإلى البحر .

ثم قال :

ـ لقد افتقدتك . . ماذا اصطدت ؟

ـ واحدة فى اليوم الأول ، وواحدة فى الثانى ، واثنتين فى الثالث .

ـ حسن جـدًّا .

ـ والآن سنصطاد معاً مرة أخرى .

ـ كلا . . إننى لست محظوظاً ، لم يعد لى حظ على الإطلاق .

فقال الغلام :

ـ إلى الجحيم أيها الحظ ، سأجلب لك الحظ معى .

ـ وماذا ستقول أسرتك ؟

ـ لا يعنينى هذا ، لقد اصطدت سمكتين بالأمس ، ولكننا سنخرج للصيد معاً من الآن ، فإننى مازلت فى حاجة إلى تعلم الكثير .

ـ يجب أن نأتى برمح قاتل قوى ، وأن يكون معنا دائماً فوق سطح المركب، ويمكنك أن تصنع نصله من صفيحة قوية من صفائح سيارة فورد قديمة ، ويمكننا أن نقوم بصقله وشحذه فى « جوانا باكوا » . يجب أن يكون حادًّا ، على ألاَّ يكون من الفولاذ القابل للكسر .

لقد انكسرت سكينى .

ـ سأحضر سكيناً أخرى ، وسأشحذ الصفيحة التى سنصنع منها الرمح .

ثم قال الضبى :

ـ كم يوماً يستمر هذا النسيم الشديد ؟

ـ ربما ثلاثة أيام ، وربما أكثر .

فأضاف الصبى :

ـ سأنظم كل شىء . وعليك أن تعنى جيداً بيديك أيها الرجل العجوز .

ـ إننى أعرف كيف أعتنى بهما . . لقد بصقت فى الليل شيئاً غريباً ، وأحسست أن شيئاً فى صدرى ينسحق بالألم .

فقال الصبى :

ـ اعتن بذلك أيضاً . . استلقِ أيها العجوز وسأجيئك بقميصك النظيف وبشىء تتبلغ به .

عندئذ قال له العجوز :

ـ أحْضِرْ أى صحيفة من الصحف التى صدرت فى الوقت الذى تغيبتُه .

ـ يجب أن تسترد عافيتك سريعاً ، فهناك الكثير الذى أستطيع أن أعلَمه ، ويمكنك أن تُعلمنى كل شىء ، وإلى أى مدى عانيت ؟

فقال العجوز :

ـ كثيراً .

قال الصبى :

ـ سأجيئك بالطعام والصحف ، استرح جيداً أيها الرجل العجوز ، سأحضر دواءً ليديك من مخزن العقاقير .

ـ لا تنس أن تخبر بدريكو أن رأس السمكة له .

ـ كلا . . سأتذكر ذلك .

وحين خرج الغلام من الباب ، هبط إلى الطريق الصخرى المرجانى البالى ، وقدمت بعد الظهر مجموعة من السائحين إلى الشرفة ، وكانت معهم امرأة تتطلع إلى الماء ، فرأت بين علب البيرة الفارغة وسمك البركودة الميت

عموداً فقريًا طويلاً أبيض اللون منتهياً بذيل ضخم فى وضع رأسى وهو يتأزجح مع حركات المد والجزر ، فى حين كانت الريح الشرقية تهب فوق بحر عميق خارج مدخل الميناء .

سألت المرأة أحد السقاة :

ـ ما هذا ؟

وكانت تشير إلى العمود الفقرى للسمكة الضخمة الذى أصبح الآن مجرد نفاية فى انتظار أن تجرفها مياه المد والجزر .

فأجابها الساقى بلغة انجليزية ركيكة :

ـ سمكة قرش .

وكان يحاول أن يشرح لها ما حدث .

ـ لم أكن أعرف أن أسماك القرش لها مثل تلك الذيول الرشيقة ، وبذلك الشكل البديع .

فقال زميل لها :

ـ ولا أنا أيضاً .

وفى أعلى الطريق كان الرجل العجوز قد أسلم نفسه للنوم مرة أخرى داخل الكوخ .

كان لا يزال نائماً على وجهه ، فى حين جلس الصبى إلى جواره يراقبه .

وكان العجوز يحلم بالأسود والسباع .

المؤلف



آرنست هيمنجواى

إرنست هيمنجواى روائى وقصاص أمريكى من أشهر وأعظم كُتَّاب القرن العشرين

حصل على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٥٤ ، كما فاز بجائزة « بوليتزر » قبل ذلك بعام عن روايته « العجوز والبحر » .

رأت عيناه النور فى الحادى والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٩٩ فى أوك بارك بولاية « إلينوى » .

كان والد إرنست هيمنجواى ـ الدكتور كلارنس إدموندز هيمنجواى ـ يعمل طبيباً كممارس عام ، وكانت والدته ـ جريس هول هيمنجواى ـ قد عرفت والده منذ أن كانا يتلقيان العلم فى المدرسة العليا بأوك بارك ـ وهى مدينة من ضواحى « شيكاجو » وهى التى وُلد بها إرنست ، الطفل الثانى الذى رُزِقَ به هيمنجواى ، وأول أبنائه الذكور . وأضحت الأسرة ـ فيما بعد ـ مكونة من ستة أطفال : أربع بنات وولدين ، بالإضافة إلى الوالدين .

وفى عام ١٨٩٩ الذى وُلد فيه هيمنجواى ، وَقَّع والداه عقداً لبناء كوخ صيفى على شواطىء بحيرة « والوون » التى كان يُطلق عليها فى ذلك الوقت « بحيرة الدب » ، بالقرب من مدينة « بيتوسكى » شمال « ميتشيجان » .

وقد أصبحت هذه البحيرة والبيئة المحيطة وضواحيها مصدر إلهام لإرنست فى كثير من قصصه القصيرة . . وهى أيضاً المنطقة التى تدور فيها قصة « النهر ذو القلبين الكبيرين » حيث مارس فيها « نك آدامز » أول خبراته فى مباهج الحياة وأحزانها ، وواجه فيها الحب ، والعنف ، والموت .

وكان الصبى إرنست هيمنجواى يقضى شهور الصيف على شواطىء

بحيرة « والوون » حيث تدرب فيها على إقامة خيمته ، ومارَس فيها الصيد والطراد ، وصيد الأسماك . وهناك نشأ الارتباط بينه وبين الخلاء والهواء الطلق الذى تطور إلى وَلَعٍ ، وشَغِفَ بهما طوال حياته .

وتعَلَّق إرنست ـ مثل أبيه ـ بالطبيعة وأحَبَّهَا . وقد أعطاه والده قصبة صيد وهو فى سن الثانية ، وأعطاه بندقية وهو فى سن العاشرة . وكان إدموندز هيمنجواى يجيد الطهى ، ويحب كل أنواع الأسماك ، وكان ماهراً فى الصيد والقنص ، ويهيم بجمع الآثار القديمة وما له صلة بعالم الحيوان . وكان حادَّ النظر ، يرى على مسافات بعيدة ، وامتاز ببراعته فى إطلاق بندقيته التى كان يصيب بها الهدف بدقة بالغة . وعلَّمَ إرنست فن الرماية ، وصيد الأسماك ، وإقامة الخيام . وكان إرنست وهو صبى يصحب أباه حينما يُسْتَدْعَى لإسعاف حالات طارئة حول « بيتوسكى » .

وكان « نك آدامز » بطلَ بعضِ قصص إرنست هيمنجواى المبكرة ، يصحب والده ـ الذى كان طبيباً هو الآخر ـ فى مثل هذه الاستدعاءات .

وأعطى إرنست هيمنجواى لأبيه شكلاً مثاليًّا فى بعض قصصه ، كما يفعل أغلب المراهقين من الشباب ، فبالنسبة لإرنست فى مرحلة مراهقته أصبح مدى إبصار أبيه أكثر حدة ، وعضلاته أكثر قوة ، غير أن الطريقة التى مات بها والده كانت موضوعاً مؤلماً لإرنست ، ففى عام ١٩٢٨ كان إدموندز هيمنجواى مريضاً ومصاباً بالإحباط ، واستعصى عليه النوم ، فانتحر بمسدس والده الذى كان من مخلفات الحرب المدنية .

كانت فكرة الموت متسلطة على إرنست الشاب تسلطاً مقلقاً غير سَوِيٍّ ، وكثيراً ما كان يتأمل فى الانتحار ، ولذلك نراه يكرر انتحار الآباء مراراً .

وعلى سبيل المثال نجد والد نك آدامز يقتل نفسه ، كما فعل روبرت جوردون فى رواية « لمن يدق الناقوس؟ » . ولطالما خشى إرنست أن يفقد قواه البدنية والعقلية عندما تتقدم به السن ، ومثلما فعل أبوه أنهى حياته بإطلاق الرصاص على نفسه فى أثناء فترة انتابه فيها إحباط شديد .

وهنا تبرز أمامنا أسئلة سيكولوجية عن العلاقة بين إرنست ووالده . . الأمر الذى يتطلب مزيداً من البحث والاستقصاء .

حين نضج إرنست كان فى حاجة مستمرة إلى تأكيد ذاته ، وإثبات تفوقه على الآخرين ، فشكل نفسه فى قالب أبيه من حيث إخضاع المرء وحقوقه إخضاعاً كاملاً لسلطة الأب ، فتقمص بدوره شخصية ذلك الوالد ، برغم ميله واستمتاعه فى معظم حياته وهو كبير بمناداة والده بلقب « بابا » كما كان يناديه وهو طفل . لم يصفح قط عن والدته حين كانت تتنمّر على أبيه ، كما لم يصفح عن والده لسماحه لها بأن تستأسد عليه .

تلقى إرنست هيمنجواى تعليمه الأساسى فى مدارس أوك بارك الرسمية . وفى المدرسة الثانوية كان متفوقاً فى اللغة الإنجليزية ، ومتوسطاً فى غيرها من المواد الأخرى . عمل مراسلاً صحفيًّا فى الصحيفة المدرسية ، وكان ذلك أول احتكاك له بالصحافة التى مهدت له السبيل للدخول إلى العالم خارج نطاق أوك بارك . وقد بدأ فى كتابة القصص حين كان فى الصف قبل الأخير بالمدرسة الثانوية ، متخذاً من نفسه عادة بطلاً لها فى مواقف صعبة . واستمر يكتب القصص فى المجلة الأدبية التى تصدرها المدرسة العليا ، وكان يصوغها على غرار وينج لاردنر الذى كان حين ذاك كاتباً رياضيًّا معروفاً ، يحرر عموداً خاصًّا فى صحيفة شيكاجو تريبيون ، وعلى غرار

القصص العنيفة للحياة البدائية التى كان يكتبها الروائى والقصاص الأمريكى جاك لندن (١٨٧٦ ـ ١٩١٦ م) . وظهرت موهبته ـ التى حددت فيما بعد مشوار حياته فى دنيا الصحافة والإبداع القصصى ـ عندما كان طالباً فى المدرسة الثانوية .

وكان إرنست هيمنجواى يهتم اهتماماً عميقاً بكل أنواع الرياضة ، وكان يفضل دائماً حياة المعسكرات والمخيمات ، ورياضة التجديف ، والسباحة ، وصيد الأسماك ، ومباريات الرماية . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره مارس رياضة الملاكمة ، واكتشف موهبته فى ذلك المجال ، وأصبح بمرور الوقت من هواة الملاكمة البارعين .

توقع أبوه أن يحتذى إرنست حذوه . فى حين حاولت الأم بميولها الموسيقية أن تجعل منه عازف فيولونسيل ، ولكن جميع محاولاتها باءت بالفشل .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره هرب من المنزل ، ولكنه عاد إليه ثانياً ، وتخرج فى المدرسة الثانوية فى يونيه من عام ١٩١٧ . وطرح التعليم الجامعى جانباً ، ولكنه تلقى فيما بعد تعليماً متقطعاً فى فرنسا .

وبجهد عمه تايلر حصل إرنست هيمنجواى على وظيفة مراسل «كانساس سيتى ستار» . وكانت هناك بعض الأحاديث عن التحاقه بالجيش بعد أن أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا ، ولكنَّ أباه عارض فى ذلك لصغر سن ابنه ، كما أن إرنست لم يصر على هذا الأمر .

تاق إرنست إلى الابتعاد عن مراقبة أعين والديه ، وإلى أن يضرب بنفسه فى فجاج الأرض . كانت كانساس مدينة خشنة مضطربة تموج بنشاط صاخب ، بالإضافة إلى أعمال العنف والجرائم وتجارة الجنس ، وقام المراسل

الشاب بمهامه فى المستشفيات والمحاكم ، مِمَّا أدخله إلى العالم السفلى من حياة المدينة الأمريكية المتمدينة المتحضرة . وقد زودت تلك الخبرات هيمنجواى مباشرة بمادة كثير من قصصه المبكرة ، وأسهمت بطريق غير مباشر فى تطور الإمتاع العقلى الواقعى إلى حد القسوة ، بطريقة مضادة «للكليشيهات» الخُلقية ، والوعظ المهذب الرقيق المتكلف .

وربما كان أهم ما اكتسبه إرنست فى عمله بكانساس سيتى ستار هو تأثيرها على أسلوبه ، فقد تدرب على عملية التحرير الصحفى ، ومن فضائل ذلك : الموضوعية ، والإيجاز ، والوضوح ، وتعلم هيمنجواى فى كتابته أن يستعين بالجملة القصيرة البسيطة الصريحة ، وأن يتجنب الصفات الوهمية غير الموضوعية . وإذا كانت الأسماء والأفعال بسيطة فإن القارىء سيجد الاستجابة المناسبة التى تثيره عاطفيًّا .

وفوق كل شىء ، يجب أن تكون الكتابة الصحفية مقروءة . وقد أثرت الصحافة الشعبية تأثيراً قويًّا على النثر الأمريكى بعد الحرب المدنية . فالروائى والكاتب الفكاهى الأمريكى مارك توين (١٨٣٥ ـ ١٩١٠) ، والروائى القصاص الأمريكى ستيفن كرين (١٨٧١ ـ ١٩٠٠) برزا فى ميدان الأدب القصصى من خلال خلفية صحفية ، وهما ضمن القلة التى كان لها تأثير أدبىّ مباشر على هيمنجواى . إن أسلوبهما النثرى يحاكى اللغة المستعملة فى الحياة اليومية ، ويبتعد عن الأسلوب الأكاديمى المنمق المزخرف الذى نجده فى تقاليد « نيو إنجلند » .

قدم هيمنجواى طلباً إلى الصليب الأحمر الأمريكى ليعمل سائقاً لعربات إسعاف مستشفيات الميدان ، واستقال من « كانساس سيتى ستار» فى أبريل عام ١٩١٨ قبيل استدعائه للعمل فى الصليب الأحمر .

وأبحر هيمنجواى متجهاً إلى مسرح العمليات الحربية فى أوروبا وهو ممتلىء بروح المغامرة ، وكان يلتهب حماساً إلى خوض غمار الحرب . وتوقف فى « سكيو » التى تبعد عن « ميلانو » فى شمال إيطاليا بحوالى عشرين ميلاً . ووجد أن عمله الروتينى كسائق لعربات الإسعاف ليس فيه إثارة كافية . فتطوع للعمل فى « كانتين » الخط الأمامى من الجبهة ، وأُرْسِلَ إلى «فوسالتا» على جبهة نهر « بيافى » . وهناك أُصيب هيمنجواى بجراح بالغة فى الهجوم الذى شنه الجيش النمساوى بمدافع « الهاون » ، والمدافع الرشاشة ، وعانى من جراح متعددة فى ساقيه ، وكان أخطرها رصاصة من مدفع رشاش مزقت ركبته اليمنى ، وبرغم عجزه هذا نجح فى حمل جندى إيطالى جريح إلى مكانٍ آمِن . وقد مُنِحَ وسام الشجاعة الفضى وصليب الحرب لقيامه بذلك العمل البطولى ، ورُقِّىَ إلى رتبة « ملازم أول » بالجيش الإيطالى النظامى .

وبعد أن أُسْعِفَ هيمنجواى فى مستشفى الميدان ، نُقِلَ إلى مستشفى الصليب الأحمر الأمريكى بميلانو ، حيث أُجريت له جراحة استخراج الرصاصة من ركبته اليمنى ، ورُكِّبَ لها غطاء بلاتينى . واسترد عافيته بعد عدة أشهر ، وقام برحلات قصيرة فى العطلات متكئاً على عكاز . وقد حاول العودة إلى عمله فى الصليب الأحمر . وفى النهاية شُفى من جراحه ، ومن نزواته الرومانتيكية فى الحرب .

وفى أثناء وجود هيمنجواى فى المستشفى وقع فى حب ممرضة أمريكية ، وعرض عليها الزواج ، غير أن « آنييس فون كوروسكى » لم تأخذ الموضوع مأخذ الجد ، وشجعته على العودة إلى الولايات المتحدة ، فى حين بقيت هى فى أوروبا . . وتعددت المراسلات بينهما . وظلت مستمرة عبر المحيط

الأطلنطى ، حتى أخبرته أنها أحبت ضابطاً شابًّـا بالجيش الإيطالى . شعر إرنست فى ذلك الوقت بالقهر والحزن ، ولكنه لم يلبث أن شُفِى من ذلك الحب . واستخدم تلك الخبرة التى مر بها أساساً لقصة ساخرة تبعث الشك فى طيبة الدوافع البشرية ، وكان عنوانها : « قصة قصيرة جـدًّا » .

كانت « آنييس » نقطة انطلاق لهيمنجواى فى تصويره لشخصية كاترين باركلى بطلة رواية « وداعاً للسلاح » . وكانت خبرته بأكملها فى إيطاليا هى المادة الخام لهذه الرواية .

ويسهل على المرء أن يدرك حياة هيمنجواى فى أعماله الروائية والقصصية ، ولكنها ليست مماثلة لها .

وكان تأثير خبرة الحرب على هيمنجواى عميقاً على مدى عمره .

وفى روايتى « الشمس تشرق أيضاً » ، « وداعاً للسلاح » اللتين تعتبران من أنجح رواياته ، نجد أن أبطالهما ، بصورة خاصة ، لا يتميزون بالبطولة ، وإنما تكمن صفاتهم الرئيسية فى حساسيتهم تجاه قسوة الحياة وخلوها من المعنى . لقد شوهتهم الحرب ، أو أصابتهم بالإرهاق والتعب ، والضجر والملل والحزن والاشمئزاز ، والسخرية من دوافع السلوك البشرى ، أو جعلتهم يعانون من العنف والموت ، أو أُصِيبُوا بالهلع والرعب .

ولكنه فى بعض أعماله الأخيرة ـ وخاصة « عبر النهر وإلى الأشجار » سمح هيمنجواى لصورته العامة كشخص غريب المظهر ، عنيد قاس صارم حازم خشن قوى صلب العود أن تقتحم فنه وتدخل عنوة فيه . وكان ذلك من أعراض انحدار الفنان وأُفـول نجمه .

قرأ بعض النقاد أعمال هيمنجواى وأصدروا حكمهم عليه فى وهج

وسطوع موقفه العقلى ومزاجه وحالته النفسية المثيرة للاعتراض والرفض ، ويؤكد البعض الآخر على أن هيمنجواى يجذب القراء بقوة صورته الأسطورية أكثر من قوة كتابته ، ولكنَّ هناك شيئاً مؤكداً وهو أن وجود تلك الصورة الأسطورية قد أدى إلى نقد أفرط فى تبسيط فن ورؤية هيمنجواى إلى حدٍّ نتج عنه تشويهه وسوء فهمه .

وحين رجع هيمنجواى من أوروبا إلى أوك بارك احتفت به أسرته ، وكرَّمه أصدقاؤه والمجتمع ، ولكن سرعان ما شاب التوتر جو الأسرة ، وقد دفعته تلك الفترة من حياته إلى كتابة قصة قصيرة بعنوان : « بيت الجندى » . وتوَقَّـعَ والده منه أن يستقر معززاً مكرماً محترماً .

وفى عام ١٩٢٠ حصل إرنست على وظيفة فى « تورونتو » كمرافق لصبى مقعد مصاب بالشلل . كان لديه متسع من وقت الفراغ . وبجهود والد الصبى حصل إرنست على وظيفة مراسل لتورونتو ديلى ستار ، وكاتب مقالة خاصة فى جريدة « ستار » الأسبوعية . وظل إرنست يكتب فى الصحيفتين طوال أربع سنوات ، وكان اسمه يتصدر مقالاته ، غير أنه لم يحصل إلا على أجر متواضع .

وقد غادر « تورونتو » ليقضى صيف عام ١٩٢٠ على شاطىء بحيرة «والوون» ثم عاد إلى أوك بارك . لم يكن إرنست يشعر بالراحة فى الموقف المتوتر داخل المنزل ، فخطط لنفسه أن يغادره فى أسرع وقت . وهكذا انفصل عن قيود والديه ، وكان يعود بانتظام إلى أوك بارك ، وخاصة فى عطلة نهاية الأسبوع . وجعل من « شيكاجو » مركزه الرئيسى ، وأقام بها فى سلسلة من الغرف الرخيصة الأجر ، واستمتع هناك بحياة اجتماعية نشطة

لشاب له كثير من الأصدقاء . وعمل فى عدة وظائف متتابعة تتعلق بالكتابة، وكان مستمراً فى إرسال المقالات إلى جريدة « ستار » الأسبوعية .

وقابل «هادلى ريتشارد سون» فى عام ١٩٢٠ . وهى فتاة من «سانت لويس» كانت تمرض والدتها . وقد انتحر والدها فى عام ١٩٠٣ ، وفُتِنَ إرنست بهادلى التى بادلته الحب ، وخططا لإتمام الزواج ، والذهاب إلى أوروبا، وخاصة إيطاليا ، حيث يتمكنان من رؤية المناظر التى شهدت مغامرات إرنست فى الحرب . وسوف يعيشان على الدخل الذى تُدرّه وديعة مصرفية لهادلى ، وهو حوالى ألفين وخمسمائة دولار فى العام . وكان هيمنجواى قد قابل « شيروود آندرسون » فى « شيكاجو » فى ذلك الوقت ، والذى كان قد نال شهرة كمؤلف « وينيز بورج ، أوهيو » . واقترح آندرسون على هيمنجواى أن يذهب إلى باريس كمكان مثالى لكاتب شاب طموح . وهناك يكون فى صحبة جماعة الفنانين المغتربين فى عاصمة النزعات العصرية التى تبحث عن أشكال جديدة من التعبير ، فيمكنه أن يتعلم كيف يكتب .

سُرَّ والدا هيمنجواى بفكرة زواج ابنهما ، لقد راقت لهما « هادلى » ، ولا شك أنهما اعتقدا أن ذلك الزواج سيجبره على أن يتغلب على ما كان يعوزه من تحمل المسئولية .

أبحر العروسان الجديدان إلى فرنسا فى أواخر عام ١٩٢١ . وشجع هيمنجواى الرسائل الكريمة التى قدمه بها آندرسون إلى الأعضاء البارزين من جماعة الفنانين المغتربين ، ومنهم جرترود شتاين ، وإزرا باوند ، حيث زكاه آندرسون ككاتب غير عادى . وكان ذلك ثناءً وتمجيداً كبيراً لكاتب

شاب لم يبلغ من العمر سوى اثنين وعشرين عاماً ، ولم يسبق أن نُشر له أى كتاب .

أقام هيمنجواى فى شقة رخيصة ، ولكنها لم تكن مريحة ، وتجول العروسان فى باريس لاستكشافها ، وللاتصال بجماعة الفنانين المغتربين .

أحب إرنست باريس . وبدأ يتعرف بالروائى والشاعر والناقد فورد مادوكس فورد ، وتحولت تلك العلاقة إلى معرفة شخصية وأدبية عاصفة . وقابل هيمنجواى أيضاً جيمس جويس ، أحد قمم الأدب . وبعد أن طبع هيمنجواى مجلده الأول الصغير « ثلاث قصص وعشر قصائد » سعى سكوت فيتزجيرالد إلى الاتصال به . وتطور الأمر بينهما إلى صداقة تخللتها فترات من المناوشات والمعارك وسوء الفهم .

وأسرع « إزرا باوند » إلى احتضان هيمنجواى ، فقد كان دائماً على استعداد لمعاونة صغار الكتاب ، وعمل على تنوير الشاب هيمنجواى .

خاض هيمنجواى كثيراً من المعارك الأدبية ، وأصبح ذلك نمطاً معتاداً لديه ، واستمر ملازماً له طوال حياته ، وكان على أتم استعداد لمهاجمة عيوب ونقائص أصدقائه الأدباء ومواطن ضعفهم . وقدم مقالاً للنشر بإحدى المجلات التى يعمل بها « إزرا باوند » كمحرر أجنبى ، حيث سخر فيه من بوهيمية باوند الرومانتيكية . ولحسن الحظ لم ينشر ذلك المقال . ولم يكن يروق لهيمنجواى أسلوب الحياة البوهيمية . وقاوم التطفل على الفن ، والتكلف الزائف فى جماعة الفنانين المغتربين .

وهناك مصدر آخر لمنازعات هيمنجواى الشخصية ، وهو اتخاذه لشخصيات قصصه ورواياته من أناس يمكن تمييزهم . ولم يكن يتملقهم أو يجاملهم فى تصويره لهم .

شَــمَّـرَ هيمنجواى فى باريس عن ساعد الجد ليصبح كاتباً .

وقد اعترف هيمنجواى بأن نماذجه القصصية الهامة الأولى استلهمها من قصص « وينيزبورج ، أوهيو » ، وهى مجموعة قصصية من تأليف أندرسون. وكانت الرسائل الواردة من المحررين الأمريكيين تشكو من أن قصص هيمنجواى لم تكن قصصاً بالمرة .

وأنتج هيمنجواى أيضاً صوراً انطباعية أدبية نثرية موجزة تمسك بالحدث فى اللحظة المناسبة حين تظهر العناصر الجوهرية العاطفية . وبذل جهداً مضنياً فى العمل بأدواته الأساسية فى فنه : كيف يكون صادقاً مع إيقاع اللغة المنطوقة ، وكيف يقول أكثر بأقل كلمات ، وكيف ينقل الانفعال المطلوب بدون أن يخبر القارىء بطريقة مباشرة ما يفترض أن يشعر به . ومن الواضح أن هيمنجواى ظل طوال حياته فناناً جادًّا .

وقد أُتيحت له فرصة القيام بكثير من الأسفار وهو يضطلع بمهامه الصحفية فى « الديلى ستار » اليومية والأسبوعية . فغطى كثيراً من القصص السياسية والحربية الكبرى فى العشرينيات فى كل من فرنسا ، وسويسرا ، وإيطاليا ، ومنطقة البحر الأسود . وكان يمارس مع زوجته هادلى صيد السمك ، والتزحلق على الجليد ، ويقضى العطلات مرتاداً معها المناطق التى تستحق المشاهدة . وفى الرحلة التى قام بها إلى إسبانيا مع بعض أصدقائه وشاهد فيها مصارعة الثيران أثارت حماسه لها طيلة حياته .

حملت هادلى منه ، وقرر العروسان أن يعودا إلى كندا حتى يولد طفلهما على أرض أمريكية . وقبيل إبحارهما صدر لِهيمنجواى فى عام ١٩٢٣ أول مجلد من كتاباته فى طبعة باريسية صغيرة بعنوان : « ثلاث قصص وعشر

قصائد » . وصحيح أن المجلد كان رقيقاً غير أنه كان شيئاً واقعيًّا ملموساً ، وارتفعت روح هيمنجواى المعنوية . وقد ولد طفله فى كندا ، وكان ذكراً ، وعندما اشتد ساعده قليلاً وأصبح قادراً على تحمل السفر ، أبحر هيمنجواى وزوجته هادلى وطفلهما إلى باريس ثانية . وحينما كانوا فى كندا كانت الصور الوصفية الأدبية القصيرة التى كان هيمنجواى قد كتبها فى باريس ، قد أُعِيدَ نشرها فى طبعة باريسية صغيرة تحت عنوان : «فى زماننا» .
وفى عام ١٩٢٥ ساعده « دونالد أوجدين ستيوارت » الذى كان عضواً فى جماعة الفنانين المغتربين فى باريس ، على طبع القصص الثلاث التى يتضمنها مجلد « ثلاث قصص وعشر قصائد » ، والصور الوصفية الأدبية القصيرة التى يتضمنها مجلد « فى زماننا » ، وأُضيف إليها مجموعة كبيرة من القصص القصيرة ، ونشرت كلها فى أمريكا لدى الناشرين بونى وليفرايت بعنوان : « فى زماننا » . وكانت كل قصة منها يقدم لها بإحدى الصور الوصفية الأدبية القصيرة التى كتبها فى باريس . وتنبأ بعض النقاد بأنهم سيرون عدم ارتباط فى الموضوع بين كل اثنين منهما .

وقد استُقبلت القصص القصيرة بالحفاوة من النقاد الذين يتميزون بمزيد من حدة الملاحظة ، ويتسمون بنفاذ البصيرة ، والتفهم والتعاطف مع المبدع ومن بينهم إدموند ويلسون ، وبول روزنفلد ، وآلين تيت الذين أجمعوا على أن هناك موهبة أصيلة ناضجة قد ظهرت فى الساحة الأدبية .

أما الرمز فى قصص هيمنجواى فلا يدخل وعى القارىء كرمز أبداً ، ويبلغ هيمنجواى هدفاً متسعاً وعالميًّا للمعنى باعتماده على المواقف والأشياء التى ستتطور من الداخل حتى تتسع وتصبح من المعانى المتضمنة . إن طريقته أقرب إلى تلك الموجودة فى أعمال الكُتَّاب قبل أن تصبح الرمزية حركة

وعىٌ أدبىٌ . وهناك رموز فى أعمال هيمنجواى ، ولكنه ليس كاتباً رمزيًّا .

* * *

وفى عام ١٩٢٦ طبع له الناشر سكريبنر رواية « سيول الربيع الجارفة » وهى تسخر من عمل شيروود آندرسون « السيول الجارفة » . وهى اشتياق غامض للحياة الحقيقية التى تدور كالدوامة حول يوجى جونسون ، وهو محارب قديم ، وسكريبس هوارد ، أحد رجال الأدب ، وهو حر غير مقيد كثير الترحال . وفى النهاية نجد السيول الجارفة تجىء لسكريبس بحبه الحقيقى ، وتكتسح يوجى العارى إلى الغابات بصحبة أمريكية من الهنود الحمر ، وهى من العراة مثله .

وفى ذلك الوقت تَحَطَّمَ زواجُ هيمنجواى ، واتفق الطرفان إرنست وهادلى على العيش فى بيتين منفصلين . وفى يناير من عام ١٩٢٧ طلق هيمنجواى زوجته هادلى ريتشاردسون (وهى المرأة التى كان عليه أن يحبها بقية حياته ـ كما جاء ذلك فى « عيد متحرك ») .

أحب إرنست باولين بفيفر ، وهى فتاة ثرية من آركانساس كان قد قابلها فى باريس . وتزوجها فى مايو من عام ١٩٢٧ .

وحين نشرت رواية « الشمس تشرق أيضاً » فى عام ١٩٢٦ جلبت لهيمنجواى شهرة واسعة ، وقد اعتبرها كثير من النقاد أفضل رواياته .

تعالج هذه الرواية حياة جماعة من الأمريكيين والإنجليز المغتربين فى باريس بعد الحرب العظمى الأولى . وفى جو مرهق من الضجر والملل تدفعهم رغبة فى التحرر من الوهم إلى الانغماس فى المباهج والمسرات المسعورة التى يلفها الغموض والإبهام والقتامة ، نراهم يقومون بجولات إلى الحانات

والنوادى الليلية يرقصون ويبالغون فى الشراب ، وينغمسون فى العلاقات الغرامية ، وتنطلق حناجرهم خلال ذلك بالضحك وإطلاق النكات ، ساخرين من الجراح التى ابتلتهم بها الحرب فى أجسامهم ونفوسهم .

ويعطى ذلك لهيمنجواى قبضة قوية على الواقع وحقيقته ، ويجعله مُحَلِّلاً حاذقاً للنفس البشرية فى زماننا .

* * *

وحين عاد هيمنجواى من أوروبا مع زوجته « باولين بفيفر » فى عام ١٩٢٨ استأجرا شقة فى « كى ويست » فى فلوريدا لعدة أسابيع ، وكان ذلك بداية لارتباطه الطويل بمنطقة الكاريبى . وجاءه فى هذا العام فيها بعد أنباء انتحار والده ، فهزه ذلك من الأعماق . وجاء فى كتاب كارلوس بيكر الذى ألفه عن الكاتب هيمنجواى كفنان ، والذى صدر ضمن مطبوعات جامعة برينستون فى عام ١٩٥٢ أن إرنست فى فترة تشييع جنازة والده سأل والدته أن ترسل له المسدس كتذكار تاريخى . وقد استجابت لطلبه .

كان هيمنجواى يكتب رواية أخرى « وداعاً للسلاح » استلهمها من خبراته فى الحرب العظمى الأولى . . والشوق يدفعه إلى أن تجىء عملاً كبيراً ناجحاً لترسيخ المركز الذى ظفر به فى العالم الأدبى بروايته « الشمس تشرق أيضاً » وبقصصه القصيرة .

كانت الحرب فى إيطاليا تجربة أحدثت صدمة للشاب البسيط . وبعد مرور عشر سنوات على ذلك الحدث انتقل ليصبح فى قبضة الفن والعاطفة كوحدة كاملة لتجربة هيمنجواى فى إيطاليا ، فكتب روايته «وداعاً للسلاح» عن تلك الحرب .

وتُعَـدُّ رواية « وداعاً للسلاح » ـ بوصفها للإنسان فى المعركة ـ من أفضل وأهم روايات الحرب ، ونجد هيمنجواى يصف الحرب كما تبدو فى عينى أحد المشاركين فيها ، كما فعل ستندال (وهو الاسم المستعار للروائى الفرنسى هنرى بيل) فى روايته « البيت المؤجر فى بارما » (١٨٣٩) ، والروائى الأمريكى ستيفن كرين فى روايته « شارة الشجاعة الحمراء » (١٨٩٥) . واستطاع هيمنجواى أن يُصوّر الارتباك والفوضى فى المعركة كما عايشها كل جندى ويوصلها إلى القارىء . ولم يقدم هيمنجواى مشهداً شاملاً لأرض المعركة أو رسماً منظوريًا للحرب ، كما لم يشغل نفسه باستراتيجية وتكتيكات القواد أو رجال السياسة .

إن هيمنجواى يُرينا الحرب كإهانة بالغة لا تُطاق للإنسانية ، وهو لا يهتم ولا يركز على الأوجه السياسية للحرب .

ونحن نجد الخطوط المحيطية للأشكال والصور غير محددة بدقة ، فتكنيك هيمنجواى تأثيرى ، أى انطباعى بصرى ، يجعل القارىء يركز على الصورة بإدماج الألوان بنفسه ، فهيمنجواى شديد البراعة فى فنه ، إذ يعرف متى لا يقول أكثر مما قاله .

وتعد « وداعاً للسلاح » من أجمل قصص الحب فى الأدب الأمريكى .

* * *

ونُشر ليهمنجواى بعد ذلك عملان كبيران : « الموت بعد الظهر » فى عام ١٩٣٢ و « تلال إفريقيا الخضراء » فى عام ١٩٣٥ ، بالإضافة إلى قصص كثيرة عديدة رفيعة المستوى .

وكتاب « الموت بعد الظهر » يحكى عن تاريخ مصارعة الثيران فى

إسبانيا، ويتضمن قاموساً لشرح الكلمات العسيرة ، ومختارات رائعة من الصور التى جمعها هيمنجواى الذى أصبح شديد الإعجاب بمصارعة الثيران . ولما كان هيمنجواى يعتقد أن مصارعة الثيران هى تعبير عميق عن الشعب الإسبانى ، فإن كتاب « الموت بعد الظهر » ليس مجرد كتاب عن مصاعة الثيران فحسب ، بل إنه أيضاً تاريخٌ ثقافى ، وكتاب رحلات عميق، وهو شىء أقرب إلى أغنية حب لإسبانيا .

وفى عام ١٩٣٣ قام هيمنجواى برحلة قنص وصيد إلى شرق إفريقيا مع تشارلس تومسون ، وهو من أصدقائه المقربين ، وزميله فى صيد الأسماك من « كى ويست » . وصادفت تلك الرحلة نجاحاً كبيراً ، وأحب هيمنجواى إفريقيا ، ومن الجانب الأدبى أمدته تلك الرحلة بمادة كتابه « تلال إفريقيا الخضراء » ، وكذلك بمادة اثنتين من أروع قصصه القصيرة « حياة فرانسيس ماكومبر القصيرة السعيدة » و « ثلوج كيليما نجارو » .

وفى عام ١٩٣٧ ظهرت له رواية « مَنْ معه ، ومن ليس معه » وتقع أحداثها فى « كوبا » و « كى ويست بفلوريدا » عن رجل قتل بعد أن أصبح طريدَ القانون ليُعِينَ أسرته ويساعدها .

ونشرت له رواية « لمن تُـدَقُّ الأجراس » عام ١٩٤٠ التى تقع أحداثها إبان الحرب الأهلية الإسبانية ، واستقاها من عمله كمراسل حربى لصحيفة اتحاد شمال أمريكا ، حيث سافر إلى أسبانيا فى عام ١٩٣٧ ، ومن هناك استوحى أيضاً مسرحيته « الطابور الخامس » التى نُشرت عام ١٩٣٨ .

وفى عام ١٩٤٠ طلَّق هيمنجواى زوجته باولين بفيفر ، وتزوج بصحفية شابة تدعى « مارتا جيلهورن » .

وعمل فى الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٦ مراسلاً حربيًّا فى أوروبا ، وطار مع سلاح الجو الملكى ، وشارك فى غزو نورماندى ، وانضم إلى فرقة المشاة .

وطلَّق « مارتا جيلهورن » فى عام ١٩٤٥ وتزوج « مارى ويلش » التى قابلها فى لندن فى أثناء الحرب عام ١٩٤٦ . وكان سعيداً فى حياته الزوجية مع تلك الزوجة الرابعة إلى أن مات .

وفى عام١٩٤٨ رحل هيمنجواى إلى إيطاليا التى لم يرها منذ عام ١٩٢٧ . واتخذ من « البندقية » قاعدة له . وقام مع مارى برحلات قصيرة إلى شمال إيطاليا ، وأخرى إلى أحد المشاهد فى تجاربه الحربية فى عام ١٩١٨ .

وتصادق فى مدينة « البندقية » مع الكثيرين من أرستوقراطِـيِّى إيطاليا ، وخاصة فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها تدعى « أدريانا إيفانتشيك » . وكانت ثمرة تلك الزيارة رواية « عبر النهر وإلى الأشجار » التى نُشرت فى عام ١٩٥٠ ، وبطلها الكولونيل الأمريكى « ريتشارد كانتويل » وهو فى الخمسين من عمره ويعمل فى سلاح المشاة الأمريكى ، واشترك فى الحربين العالميتين اللتين دارت رحاهما فى القرن العشرين ، حيث حارب كضابط شاب مع الجيش الإيطالى فى الحرب العظمى الأولى ، وحارب حين تقدم به العمر مع الجيش الأمريكى فى فرنسا وألمانيا فى الحرب العظمى الثانية .

يعود الكولونيل ريتشارد المريض بالقلب ـ فى أيامه الأخيرة قبل موته ـ إلى مدينة « البندقية » الأثيرة لديه ليرى حبيبته الفتاة الإيطالية الشابة « ريناتا » . إن الفقرات التى تحمل وصفاً للجسور ، والقنوات ، والمبانى فى البندقية ،

والمحيط ، كانت من أروع ما كتبه هيمنجواى ، غير أنَّ الرواية قُوبلت بفتور.

* * *

وفى عام ١٩٥٢ نُشرت له رواية « العجوز والبحر » التى رحب بها النقاد أيما ترحيب ، واعتبروا أن هيمنجواى قد عاد بها إلى ذروة قوته . وقد حصل بها هيمنجواى على جائزة بوليتزر لعام ١٩٥٢ . وكان ذلك مقدمة لفوزه بجائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٥٤ ، حيث جاء فى تقرير اللجنة أن الجائزة مُنحت له لتفوقه وامتلاكه لناصية الأسلوب فى فن الرواية الحديثة ، كما يظهر ذلك بوضوح فى روايته الأخيرة : « العجوز والبحر » .

ويرتكز بناء تلك الرواية ونسيجها على حدث واحد غير معقد فى حياة صياد أسماك عجوز من « كوبا » يدعى « سانتياجو » . وتدور الرواية عن ذلك العجوز ، بالإضافة إلى الصبى « مانولين » المعجب به ، وقد رسم هيمنجواى هاتين الشخصيتين بعمق . وكانت حبكة « العجوز والبحر » تدور فى تلافيف عقله منذ عام ١٩٣٦ . وحين تقدمت السن بهيمنجواى اكتشف ثروة جديدة فى قصة ذلك الصياد العجوز .

لم يظفر « سانتياجو » بأية سمكة طوال أربعة وثمانين يوماً ، وقد راوده الأمل فى ذلك اليوم بأن الحظ سيعود ويطرق بابه ثانية ، فراح يضرب بمجدافيه فى الماء بنشاط ، خارجاً بمركبه من ميناء « هافانا » قبل أن تبزغ الشمس من خدرها ، فأوغل فى البحر عاقداً العزم على الاصطياد فى مكان بعيد لم يصل إليه من قبل ، وفيما وراء المنطقة التى اعتاد غيره من الصيادين كَسْب رزقهم فيها ، إنه ينشد اصطياد سمكة ضخمة ، وإذا تحقق ذلك فلن يُدِرَّ عليه ربحاً وفيراً فحسب ، بل سيعيد إليه أيضاً كبرياءه كرجل .

تعلقت بخطافه سمكة ضخمة من نوع « المرلين » التى تمضى قُدُماً فى البحر صوب الشمال والشرق وهى تسحب المركب وراءها ، ولا تصعد السمكة إلى سطح الماء ، ويستطيع « سانتياجو » من حركة المركب السريعة معرفة نوع السمكة التى ظفر بها .

ثم يمضى يومان تصعد السمكة بعدهما إلى سطح الماء ، وتقفز خارجه فى محاولة للتخلص من الخطاف و إلقائه بعيداً عن فمها .

ويدرك السمكة التعب فى اليوم الثالث فتشرع فى إدارة المركب حركة دائرية ، ويتمكن « سانتياجو » من جذب السمكة إلى أن تصبح قريبة جدًّا من المركب . وأخيراً حين تصبح فى محاذاة المركب يطعنها العجوز برمحه ويقتلها . ولما كانت السمكة أطول من المركب كان لا بد من ربطها إلى الحافة العليا من جانب المركب تَوْطِئَـةً لرحلة العودة إلى « هافانا » . ثم تجىء أسماك القرش جماعات وفُـرَادَى ، وبرغم المحاولات المضنية التى يبذلها العجوز ، تتمكن من تمزيق لحم السمكة . وحين يصل المركب إلى الشاطىء ويستقر به لا يبقى من السمكة سوى هيكلها العظمى . يخلع العجوز الصارى من مكانه ، ويطوى حوله الشراع ويربطه ثم يحمله على كتفه ، ويمضى إلى كوخه وهو يتمايل ويترنح . وهناك يتمدد فوق فراشه وينام .

وحين نتصدى لمناقشة رواية « العجوز والبحر » فإن أسوأ فهم لها أن نعتبر «سانتياجو» هو هيمنجواى نفسه . ومن ذلك المنطلق فإن أسماك القرش قد تصبح نقاد هيمنجواى ، وتصير الرواية كلها تأكيداً للذات واستدراراً للعطف . أما إذا تراجعنا واعترفنا بأن « سانتياجو » هو جزء من التاريخ النفسى والروحى لهيمنجواى فإن هذا سيكون أمراً آخر . فقصة الصياد

العجوز تعكس الرؤية المأسوية الناضجة لهيمنجواى وتؤكدها . فهى تسلم تماماً وتعترف بوجود الشر والأذى والمصائب والكوارث وتقلب الظروف التى يصعب تعليلها أو التنبؤ بها ، وبرغم ذلك فإن هيمنجواى يقدر الطاقة الكامنة فى الجنس البشرى ، والمشاركة الجوهرية بين الإنسان والطبيعة . فسانتياجو برغم أنه يريد قتل السمكة فإنه يشعر نحوها بالإعجاب . . إنه رباط من الحب والاحترام بين خصمين جديرين بالاهتمام . . إن الصراع بين العجوز والسمكة كان مباراة عادلة تثير إعجاب المشاهدين ودهشتهم وإشفاقهم . وعندما تهاجم القروش السمكة يتدخل هنا عامل آثِمٌ شرير ، مما يوجب اعتذار « سانتياجو » :

ـ إننى آسَفُ لك أيتها السمكة ، لقد ساء كل شىء .

ربما لم يكن كل شىء قد ساء تماماً . فالسمكة والعجوز تصارعا بشرف ، غير أن هناك ما هو أكثر من ذلك بالنسبة للعالم ، إن الخصمين من الخاسرين معاً ، ولكنهما أيضاً من الرابحين معاً .

إن مبدأ الشر فى الرواية يرتكز على مشاعر هيمنجواى التأثيرية الانطباعية أكثر من استناده إلى منطق فلسفى . إن البارجة البرتغالية حيوان من «الأبابيات » يطفو فوق الماء بوساطة مثانة جيلاتينية ، وتتدلى خلفه خيوط سامة مميتة ، فأسماها سانتياجو « البَغِـىّ » . وسمك القرش شر أيضاً، إن الشر يعنى الجبن وسوء المظهر والأنانية أو القسوة ، وبعد أن تشوهت السمكة من جراء اللحم الذى مَـزَّقَه القرش وانتزعه منها ، عَـبَّر سانتياجو عن شكوكه وحيرته إزاء ذلك القرش الذى قام بأول هجوم قائلاً :

ـ إن أبا الأسنان يعيش على الأسماك التى أعيش عليها أنا الآخر . وهو

ليس قَمَّاماً يقتات بالقِمَـامَة ، أو مجرد شهية متحركة من أجل الطعام مثل بعض أسماك القرش ، إنه جميل ونبيل ، ولا يهاب شيئاً .

وربما كان ذلك القرش ـ من بعض الأوجه ـ مثل الصياد ، فالشر لا يمكن وحده أن يعلل إحباط وخيبة الإنسان .

وكثيراً ما توصف رواية « العجوز والبحر » بأنها تعبر أو تلمح إلى مبدإٍ أخلاقى أو دينى ..

ويمد هيمنجواى اقتصاده المعتاد فى الأسلوب إلى اقتصاد فى البناء والمعالجة ، إنه يعرى المسائل الخارجية إلى أبعد حد . إن المظهر البدنى الخارجى لسانتياجو مرسوم رسماً تخطيطيًّا أكثر منه لوحة مصورة ، والصفات الأخرى مرسومة بطريقة تبرز فيها الخطوط المحيطية .

وسانتياجو فى معركته مع السمكة الضخمة رجل وحيد فى البحر ، بيد أن علاقاته بالجنس البشرى والتاريخ تمتد إلى الأرض ، فهناك فى البداية الصبى « مانولين » الذى منعه والداه من الإبحار مع « سانتياجو » خشية أن ينتقل سوء حظ الرجل العجوز ، والنحس الذى يلازمه إلى الصبى ، وفى نهاية الرواية يعزم الصبى على الانضمام ثانية إلى معلمه الناصح المخلص ، وحين كان العجوز يستعد للراحة بعد عودته من رحلته المضنية الشاقة التى أوغل فيها داخل البحر ، يقول له الغلام :

ـ يجب أن تسترد عافيتك سريعاً فهناك الكثير الذى أستطيع أن أتعلمه ، ويمكنك أن تعلمنى كل شىء .

هذا الغلام الذى أحضر الطعام والدواء إلى سانتياجو لم يفقد قط إيمانه بمكانة سانتياجو ومنزلته الرفيعة كصياد وبطل .

وعادة ما يكون أبطال هيمنجواى محبوبين أو مُبَجَّلِين ومُوَقَّرِين . وفى رواياته الأخرى نجد امرأة تحب البطل ، فى حين أننا هنا نجد صبيًّا يحب البطل العجوز ، وقد يرجع ذلك إلى أن هيمنجواى أصبح كهلاً عندما كتب رواية « العجوز والبحر » . ومع ذلك يمكننا أن نمضى إلى أبعد من ذلك ، ونعتبر أن الرباط الذى يربط مانولو بسانتياجو هو حلقة ربط بين الأجيال ، والأمل فى استمرار الحياة ، وحاجة الكبير إلى الصغير ، والصغير إلى الكبير.

كان العجوز سعيداً فى زواجه ، وفوق جدران كوخه عَلَّق الرجل صورة ملونة للقلب المقدس ، وأخرى للعذراء ، وكانتا بقايا صور تذكارية من زوجته التى غادرت دنيانا ، وفيما مضى كانت هناك صورة فوتوغرافية لها ذات ألوان باهتة معلقة على الحائط ، غير أنه أنزلها من فوق الجدران ؛ لأنه كلما نظر إليها كانت تحمل إليه إحساساً بالوحدة والغربة الموحشة ، ووضعها على رف فى ركنٍ خلف قميصه النظيف .

ولسانتياجو علاقاته مع الماضى ، تاريخه الخاص ، ففى شبابه كان بطلاً قويًّا ، وفى إحدى مباريات القوة استطاع أن يثنى ذراع متحديه الذى كان جباراً ذا قوة خرافية ، وها هو ذا العجوز يحلم الآن بالأُسود والسباع فوق شواطىء إفريقيا التى سبق أن شاهدها من فوق سطح إحدى السفن . يجلس الصبى فاغراً فاه حين يخبره الرجل العجوز بالحلم .

ويحتمل حلم السباع فوق الشاطىء مختلف التفسيرات والتأويلات على أوسع مدى . . فقد يكون حُلْمَ مغامرات ، أو طاقةً وكبرياء لا حد لهما ، أو حُبًّا للكون والبشر ، أو سخاء الحياة ، إنها جملة فيها المعنى العام واضح ، ولكن يمكن أن يرى فيها كل إنسان شيئاً خاصًّا به .

وحين يقول العجوز إنه كان يجب ألاَّ يتوغل بعيداً فى البحر ، لا ينبغى أن نأخذ ذلك مأخذ الجد ، إذ أنه فى المرة القادمة قد يتوغل إلى مدى أبعد .

وقد لا تكون « العجوز والبحر » أعظم روايات هيمنجواى ، ولكنها العمل الذى حظى منه بأبدع تعبير برؤيته الناضجة المتزنة .

* * *

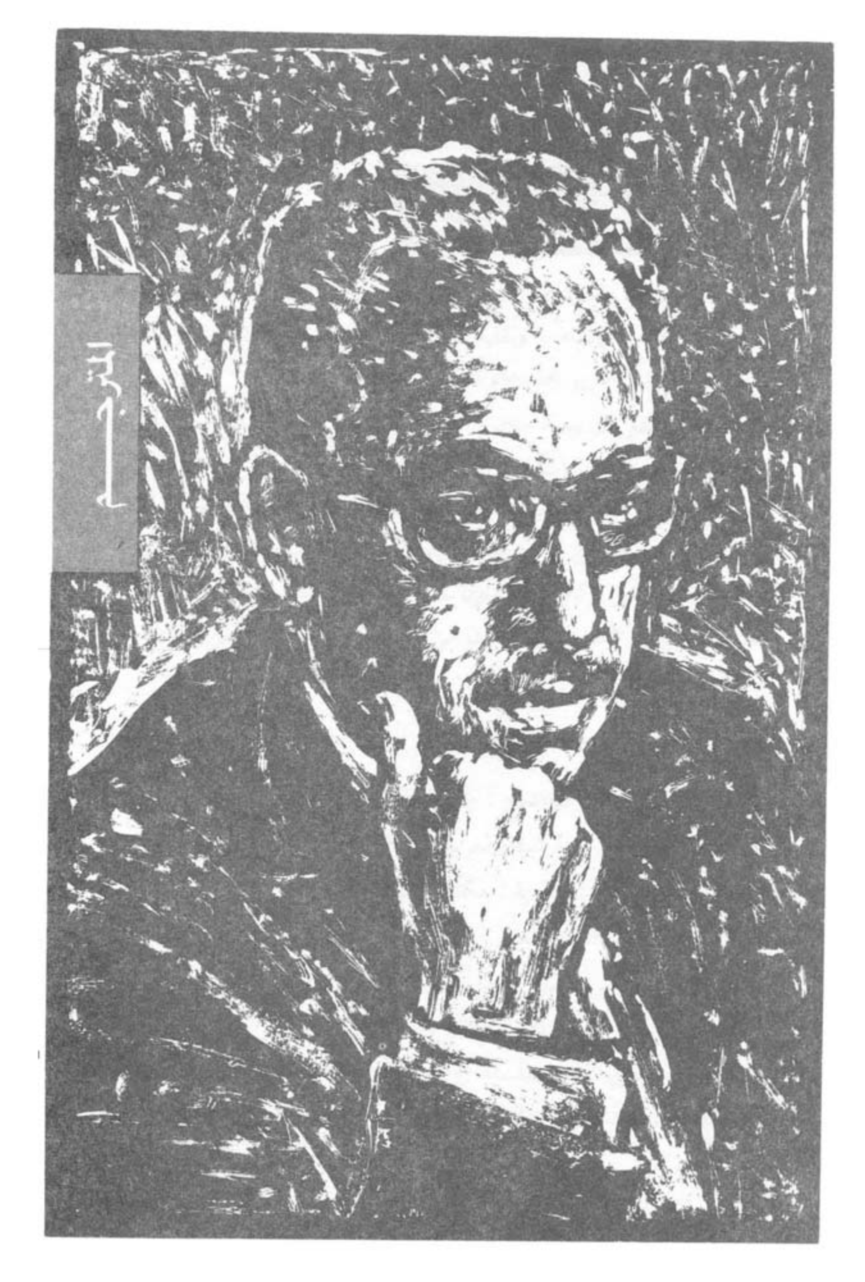
كانت رواية « العجوز والبحر » آخر أعمال هيمنجواى القصصية . وقد قضى الأعوام التسعة الأخيرة من حياته وهو يناضل فى معركة خاسرة لا يمكن تجنبها ضد المرض والشيخوخة ، والانحدار العام فى طاقته الإبداعية .

وقام برحلته الثانية إلى إفريقيا مع زوجته « مارى » فى الفترة بين عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ . وقد منحته سعادة بالغة . واصطحب معه « فيليب برسيفال» الذى كان هيمنجواى يُعجب به كدليل منذ عشرين عاماً مضت . وبَـدَا أن هيمنجواى استعاد فى تلك الرحلة حيوية وحماسَ أيَّام شبابه ، غير أن الخاتمة كانت خطيرة ، فقد تحطمت بهم طائرتان على التوالى فى أوغندة فى نهاية الرحلة ، وكاد يلقى حتفه هو وزوجته ، بل نشرت كثير من الصحف نبأ وفاته . وقد ساءت صحته بعد ذلك ، وكان يعانى من ارتفاع ضغط الدم ، واضطرابات خطيرة فى الكبد ، والقلق ، واعتلال نفسى وجسدى مزمن بسبب تحطم الطائرتين ، وحياة مملوءة بالحوادث تركته مرهقاً مهزوماً ، وقد انتشرت آثار الجروح والندوب فى جسده .

وفاز بجائزة نوبل عام ١٩٥٤ وكانت رواية « العجوز والبحر » ذات أثر حاسم فى قرار لجنة الجائزة السويدية ، وقد أشادت اللجنة بإعجاب هيمنجواى بكل فرد يُقاتل قتالاً جيداً فى عالم واقعى يظله العنف والموت .

وعمل همنجواى فيها بين عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦٠ على فترات متقطعة ، حيث كتب ذكريات السنوات التى أمضاها فى باريس من عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٦ ، ونُشرت بعنوان « عيد متحرك » فى عام ١٩٦٤ بعد ثلاثة أعوام من وفاته ، وقد استعاد فيها سعادته وهو شاب بمهنته الجديدة ككاتب ، وحياته فى باريس بمقاهيها وفنونها ومتنزهاتها ، وزواجه . وظلت سنوات تعلمه فى باريس ، والشخصيات الأدبية التى قابلها ، حية فى عقله ، أو «عيداً متحركاً » كما سماها .

عانى هيمنجواى فى السنتين الأخيرتين فى حياته من تدهور جسدى وعقلى ، فقد نقص وزنه ، وارتفع ضغط دمه إلى درجة خطيرة ، وضعفت ذاكرته ، فلم يعد قادراً على دقة استعادة الأحداث التى يُضَمِّنُها كتاباته . وكان من أكثر الأشياء المنذرة بالسوء زيادة معاناته من الإحباط والاكتئاب النفسى الذى كان ينتابه فى فترات عصيبة على نحو خطير . وأظهر فى عام ١٩٦٠ ميلاً إلى الانتحار فدخل « مايو كلينيك » فى « مينيسوتا » للعلاج ، وغادرها عام ١٩٦١ عائداً إلى كيتشوم » ، ولم يلبث أن عاد إلى « مايو كلينيك » بعد شهور قلائل ، ثم سُمح له بالخروج ثانياً ، برغم أن زوجته كانت تتوجس خيفة من ذلك ، وأنهى هيمنجواى حياته منتحراً فى بيته بكيتشوم بإطلاق النار على نفسه من بندقية صيد بماسورة مزدوجة .



الدكتور غبريال وهبة

نشر له ١٩ كتاباً و ٦٤ قصة قصيرة و٢٥٠ مقالاً فى النقد الأدبى والمسرحى بالصحف والمجلات بمصر وشقيقاتها العربيات . وهو عضو اتحاد الكتاب، ونادى القصة ، وجمعية الأدباء ، ونقابة المهن التمثيلية (شعبة النقد) . ويعمل حالياً نائب رئيس تحرير مجلة عالم الفكر .

والدكتور غبريال وهبة حاصل على بكالوريوس كلية العلوم ، جامعة القاهرة - دبلوم دراسات عليا فى التربية وعلم النفس - دبلوم إشراف فنى (بعثة داخلية) بكلية التربية ، جامعة عين شمس - دبلوم فى اللغة الإيطالية من معهد دانتى أليجييرى - دبلوم الدراسات العليا فى النقد الفنى من المعهد العالى للنقد الفنى بأكاديمية الفنون - ماجستير فى النقد الفنى ، أكاديمية الفنون - دكتوراه الفلسفة فى الفنون من المعهد العالى للنقد الفنى بأكاديمية الفنون .

كتب صدرت للمترجم :

١ - **الكيمياء فى خدمة المجتمع** : لجنة البيان العربى ١٩٥٦ .

٢ - **الطاقة الذرية** : لجنة البيان العربى ١٩٥٦ .

٣ - **طرائف ومداعبات علمية** : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧ .

٤ - **دنيا الدم** : لجنة البيان العربى ١٩٥٨

٥ - **الإصبع أو الزمن ينصرم** : من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ .

٦ - **سآخذ بثأرى** : من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٩ .

٧ ـ **الـدوامــة** : الهيئة العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٧٠.
وهى الرواية الفائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

٨ ـ **العـاصفــة** : العدد ٢٩٩ من روايات الهلال ـ نوفمبر ١٩٧٣ .

٩ ـ **ليال لا تنسى** : العدد ٣١٧ من روايات الهلال ـ مايو ١٩٧٥ .

١٠ ـ **المسحوق السحرى ومسرحيات أخرى** : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ .

١١ ـ **جسر بنات يعقوب** : من سلسلة الإبداع العربى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٥ .

١٢ ـ **دانتى والكوميديا الإلٰهيــة** : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧ .

١٣ ـ **أثر الكوميديا الإلٰهية لدانتى فى الفن التشكيلى** : من الألف كتاب (الثانى) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٧ .

١٤ ـ **الزوجة الأولى** : من سلسلة الرواية العربية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٧ .

١٥ ـ **الغلطة الوحيدة ـ صوت من الفضاء** : مسرحيتان علميتان ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ .

١٦ ـ **دون كيشوت بين الوهم والحقيقة** : من سلسلة دراسات أدبية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٩ .

١٧ ـ **كاميلو خوسيه ثيلا** : الفائز بجائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٨٩ .
سلسلة المكتبة الثقافية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٩٠ .

١٨ ـ **العجوز والبحر** : ترجمة ودراسة نقدية عن هيمنجواى .

كلمة إلى القارئ

الذين فازوا "بجائزة نوبل" في الآداب . هل فازوا بها عن جدارة ؟ وهل فازوا بها لأسباب موضوعية ؟

هذه السلسلة "روايات جائزة نوبل" ..

تصدر للإجابة عن هذه التساؤلات فهي لا تكتفي بترجمة أفضل روايات هؤلاء الكتّاب وأشهرها ، ترجمة كاملة وأمينة بلغة عربية رصينة وأسلوب بلاغي عصري ، ولكنها تضمّن الترجمة مقدّمة تاريخية وافية عن الكاتب ، وتحليلية دقيقة عن فكره وأدبه ولغته وأسلوبه ورواياته ، حتى يجد القارئ والدارس والأديب الناشئ ، ما يسعده ويفيده ويلبّي حاجته الثقافية ..

من هذا المنطلق لابد من إعادة الفضل إلى أصحابه والاعتراف باستجابة ناشرنا المثقف «محمد رشاد» لهذا المشروع الطموح ثقافياً رغم مغامراته المادية في عالم النشر . والله الموفق دائماً

فتحي العشري

صدر من هذه السلسلة

تصميم ورسوم : محمد حجى

الدار المصرية اللبنانية

